

السيد فرج

كيف
تقويت
مستريحاً

دار الشروق

كيف
توت
مستريحاً

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلکس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص. ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بريقا : داشروق - تلکس : SHOROK 20175 LE

لن يرجع المقدارُ فيما حكم
وحملك همَّ يزيد الألم
ولو حزنت العمرَ لن ينمحي
ما خطّه في اللوح مرَّ القلم

* * *

الدرع لا تمنعُ سهمَ الأجلِ
والمالُ لا يدفعه إن تَوَلَّ
وكلُّ ما في عيشنا زائلٌ
لا شيء يبق غير طيب العمل
عمر الخيام

تقديم
شاعر الوجدان والعاطفة
أحمد رامى*

لم يدر فى خلدى أن يسند إلى القيام بوضع تقديم لهذا الكتاب الشيق . فى هذا الغرض الطريف الذى لم يسبق أن انقطع إليه كاتب . فألم بكل نواحيه مستشهداً بآيات من القرآن الكريم وأبلغ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصدق ما قال الحكماء والشعراء فى هذا الميدان . ثم أقام الدليل الواضح على صدق رأيه فيما قدمه إلى قرائه .

ولست أنكر أنى هبت أول الأمر أن أخوض فى هذا المضمار لأن الشاعر ابن الخطاير يعرض له المعنى الخفى ويسنح له الخاطر السننى فيقول مايجود به بيانه فى إيضاح ما أحسّه وما فطن إليه ، لا أن يتوفر على دراسة شىء بعينه ويطلق اليراع فى الكتابة عنه .

ولكننى وجدت نفسى مشوقاً إلى تلبية الدعوة الكريمة لما وقفت عليه فى

• منحت أكاديمية الفنون درجة الدكتوراه الفخرية للشاعر أحمد رامى تقديراً لجهوده الخلاقة . على مدى خمسين عاماً ، من أجل السمو بالأغنية العربية فى شتى المجالات الوطنية والقومية والعاطفية . مما كان له أكبر الأثر فى إثراء وجدان الشعب المصرى والأمة العربية ، فجمع القلوب على الحب وإنكار الذات وعمق وعينا بالجمال .

وقد توفى شاعر العاطفة والوجدان أحمد رامى يوم ٤ يونيو ١٩٨١ عن ٩٠ سنة و ٥٠٠ أغنية و ٦ دواوين شعر ومسرحيتين و ١٢ ترجمة لروايات مسرحية .

غضون هذا الكتاب من صور صادقة وبراهين ناطقة على سداد ما خط قلمه وأفضى به علمه .

ولقد أبلت على قراءة « كيف تموت مستريحا » فإذا مؤلفه قد برهن على أن الموت مع الاستراحة إليه قائم على طهارة الروح . ونقاء السريرة . واجتناب الذنوب . وقوة الإيمان . وسماحة النفس . وصلاح العمل . وصدق اليقين . وبذل العون . وحلاوة اللسان ، وحسن القيام على الأهل . وإكرام اليتيم . والحض على طعام المسكين ، واعتناق التفاضل ، وأمل الخلاص من التفكير في شرمقبل لا يعلم غيبه إلا الله سبحانه وتعالى ، وحمده جل وعلا . على ما أصابه مجلبةً لرحمته وطمعا في رضاه .

ثم خرج المؤلف من ذلك إلى أن الحياة فانية والآخرة باقية وأن الذكر الحميد إطالة لعمر صاحبه ، وإن كان في عداد الراحلين عن هذه الدنيا متاع الغرور . وما أصدق قول الشاعر العظيم أحمد شوقي حين يقول :

وليس الخلد مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاه المادحينا
ولكن منتهى همم كبار إذا ذهبت مصادرها بقينا
وأخذك من فم الدنيا ثناء وتركك في مسامعها طنينا

وما أصدق الشاعر القديم الذي كان ساعيا إلى القتال فحدثته نفسه بالتراجع ، فأبى عودة الجبان واختار وقفة الجسور ، وردّ عليها بقوله :

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسى حياةً غير أن أتقدما
وإنه ليشرفنى أن أسهم في هذا المعنى بقولى :

لاتقاس الأعمار في الأبد الممتد إلا بمأثرات الرجال

كل شيء إلى الزوال وليس الخلد يد وقفنا إلا على الأبطال
هم منار الهدى وهم صبيحة الحنق وهم دعوة المثال العالى

إلا أن المؤمن الذى يوقن أن الموت مصير كل حى ، وأنه لا يبقى إلا وجه
ربه ذى الجلال والإكرام قد يرهبه الموت لشدة حذبه على من يترك من أهله
وأحبابه ، وخوفه على حالهم من بعده وتعرضهم لحوادث الزمن ، فيقول فى
ذلك :

أنزلى الدهر على حكمة من شاهقٍ عالٍ إلى خفض
وغالى الدهر بوفر الغنى فليس لى من مالٍ سوى عرضى
لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

أما إذا رجع الإنسان إلى يقينه من أن الله سبحانه وتعالى كفىل برعايتهم
وكرم فى منحهم الصبر على فقدته وقادر أن يجعل بقاءهم امتدادا لحياته
العامة بالمآثر والذكريات .. فهو الذى يترك الدنيا مطمئنا مستريحا إلى أنه قام
بواجبه فى تأديهم وأدى رسالته فى توفير الرزق لهم ، بعمله الصالح ، ثم ترك
لنفسه الذكر مصداقا لقولى عن الشاعر :

صوته فى فم الطبيعة ينساب أنسياب الحياة فى الأوصال
كيف تفتى أنغامه وهو فى الكون نسيب فى لحنه السبال

ولا يسعنى قبل الوقوف عن الماضى فى الكتابة إلا أن أقدم للأستاذ السيد فرج
مؤلف هذا الكتاب الممتع بالغ تقديرى لواسع اطلاعه على ما تناوله الكتاب من

أغراض ، وحسن تضمينه لما اختار من آية كريمة وحديث مأثور وقول مشهور ...
برهاننا على صدق ما كتب .

ولست أنسى كذلك ما تناوله الكتاب من تعديد لمصادر الفناء للجنس
البشرى من زلزال يهز الأرض ويقوّض البناء ، وسيل يطغى عليها فيأتى على
الحرث والنسل ، وحروب تندلع نيرانها فتحصد الأرواح وتشيع الخراب على
الأرض التى وفر الله سبحانه وتعالى لأهلها الرزق والأمان .. ثم اختتامه لكتابه
بذكر مواقف الراحلين عن هذه الدنيا وملء قلوبهم بالإيمان بقضاء الله والتسليم
بأمره ، وأخصّهم رسوله الكريم الذى ودع الحياة على الأرض وسعى إلى
رحاب ربه وهو يردد قوله سبحانه وتعالى :

« يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك

راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

كتب الله لصاحب هذا الكتاب طول العمر وخالد الذكر ودوام الإيمان .
ونفع القراء بما قدم من رأى سديد وحثّ على الذكر الحميد ، وكتب لنا
جميعا رضاه عنا أحياء .. ورحمة لنا « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى
الله بقلب سليم » .

الهدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ●
- ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ●
- ثم خلقنا النطفة علقة
- فخلقنا العلقة مضغة
- فخلقنا المضغة عظاما
- فكسونا العظام لحما
- ثم أنشأناه خلقا آخر
- فتبارك الله أحسن الخالقين ●
- ثم إنكم بعد ذلك لميتون ●
- ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ●

صدق الله العظيم

(١٢ - ١٦ المؤمنون ك ٢٣)

١

ليس هذا كتابا متشائما

« ما أطيبك حيًا . وما أطيبك ميتا »

الصديق أبو بكر

في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم

ذروة الحكمة أن يعرف الإنسان ربه ، وأن يتقيه حق تقاته ، ويدرك أنه ملاقيه ، وأن يستعد أتم الاستعداد لهذا اللقاء العظيم ، لا شيء يجمله .. لا شيء يخيفه .. لا شيء يأسف عليه .

لقد مضى في حياته على هدى الشرف والواجب ، ونأى بجانبه عن الدنيا والمعاصي ، وعامل الناس بالمعروف ، وعمل صالحا .. فإذا جاء أمر الله احتفى به وامتلأ له ، وقال للدنيا : سلاما .

إنه مسافر إلى الجنة ..

أليست الجنة هي غاية الغايات ؟

* * *

هذا موضوع ينبغي أن ننظر فيه نظرة راضية متفائلة ..

فإذا كان الموت حقا ..

وإذا كان الموت نهاية كل حي ، لا استثناء فيه ولا مفر منه .

وإذا كانت الحياة متاعا والآخرة خيرا وأبقى ..

.. فكيف نفر من ذكر الموت وننشأم ويحل بنا الفزع والرعب ؟

وما جدوى أن نغفل عنه ولا نفكر فيه .. كأنه لن يحدث أبدا ؟

وهل الأولى أن نعرف الموت جيدا ونتفهم حكمته تماما ونلقاه براحة

ورضاء .. أم نجفل منه وندفن رءوسنا في الرمال حتى يفاجئنا ونحن لم نتأهب له . ويكرثنا قبل أن نستعد للرحيل . في أمن واطمئنان ! ؟

كيف نمضى في حياتنا هذه . تداعبنا ومضات السعادة حيناً وتوجعنا ضربات الشقاء أحياناً دون أن نفكر فيما ينبغي أن نكون عليه حين تجيء النهاية ..؟ وكيف يستمرُّ البعض منا - في غفلة من الإدراك السليم - ما يأتونه من سوء وفحشاء وغوص في الرذيلة وإمعان في الظلم والعسف واندفاع في مسالك الشر .. دون تنبه إلى مجيء الساعة واقتراب النهاية .. التي قد تجيء - وبالإلهول - في لحظة تلبس أو حالة ارتكاب !

ألم يقل لنا ابن المعتز ، قبل مئاة السنين :

جَدَّ الزمان وأنت تلعب والعمر في لا شيء يذهب
كم قد تقول : غداً أتوب غداً غداً .. والموت أقرب

ثم .. لماذا نخشى الموت ، وهو حقيقة ملازمة ونهاية مؤكدة ؟

هل عاش أحد قبلنا .. ولم يميت ؟

إن السؤال القديم المتجدد الذي يجتري الخلق هو :

لماذا نخاف من الموت ؟

فيم الحرص على الحياة ، وهي مطبوعة على الكدر مشحونة بالشر .. إذا أعطت يوماً فلكني تأخذ في يوم آخر ، وإذا ابتسمت ذات مرة فإنها لا تلبث حتى تكشر عن أنيابها وتضرب ضرتها ...

هكذا قال النبي :

أبداً تستردُّ ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلاً

وهكذا قال النابغة الجعدي :

المراء يأمل أن يعيش وطول عيشٍ قد يضره
تفنى بشاشته ويأتي بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى ما يرى شيئا يسره

من هو ذلك الذي أسعدته الدنيا سعادة وافية فأعطت واستمرت في عطاها . ومن في التاريخ كله من صفت له الحياة ولم تعبس . وأخلصت ولم نخن .. وهادنت ووفت ..

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم في شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لباله ولكن تكدر الإحسانا

وسواء سعد الناس أو شقوا . وغضبوا أو رضوا فهل تقيلهم الحياة من العذاب أو تعفيهم من الموت ؟

هل نجا من الموت ملك مقتدر أو قائد منتصر؟ .. أو ديكتاتور طاغية ..
أو شقي مرهوب الجانب .. أو بطل قوى العضلات .. أو ملكة جمال .. أو
طيب نابغة .. أو غني واسع الثراء .. ! ؟

هل استننت الدنيا أحدا .. ولو كان نبيا من أنبياء الله ؟
إن محمدا قد مات .

بل لقد أعلنه ربه جلّ وعلا بالموت قبل حينه :

« إنك ميت وإنهم ميتون » .

...

وإذا لم يكن من الموت بد ، وإذا كان للحياة نهاية ، وإذا كان الموت نهاية كل شيء .. ففيم الأسيء ولماذا الرعب ؟ وفيم الحرص على البقاء ، وماذا يجدي ذلك كله ؟!

إن الإنسان نهب مقسم بين حياتين : حياة عليا ينزع إليها بعقله وإرادته وتقواه وحسن بصره بالأمر ، وحياة دنيا تدفعه إليها غرائز الجهل والفساد والرذيلة .

إن الرجل الصالح يعيش حياته حرا مناضلا نافعا .
أما الإنسان الفاسد فيعيش قلقا متآمرا شقيا ..
فهل يستوى القرنان ؟!

إن آية الرجل الشريف أن يكون عارفا شجاعا مترفعا عن الكذب والخداع والنفاق والظلم والحقد والأنانية والخيانة .
إن أقوى الناس من يملك زمام نفسه ، فلا ينزل بها إلى منحدر الأفاقين واللاهين والمجرمين .

إن العظيم لا يحقد ولا يظلم ولا ينافق .
إنه يستقبل مسرات الحياة شاكرا ويتلقى أحزانها هادئا راضيا .
إن الحياة ليست كلها حبا وأزهارا .. وإن لنا جميعا متاعنا !

وإذا كانت العامة والدمهء لا تنظف لهم إلا اللذائذ الحسية والإغراق في الشهوات فإن الخاصة إنما يعتبرون بالخصائص العقلية والروحية ويلوذون بالحق والشرف والفضيلة .

ما أضلَّ عقل الإنسان !

فلو أنه عرف أن حياته ستنتهى يوما ما ، وفى لحظة غير معروفة . وأن الموت قادم إن عاجلا أو آجلا .. فكيف يرتضى لنفسه أن يجيئه الموت وهو فى حالة مزرية أو فضيحة مجلجلة ؟

لهذا فقد نهينا زهير بن أبى سلمى لهذه الحقيقة بنصيحة الطيبة :

تزوّد إلى يوم المات فلإنه وإن كرهته النفس آخر موعد
إن خير الناس هو من إذا حضره الموت لم يكن مدينا لأحد ، ولا والغافى
شر ، ولا ظالما لغيره ، ولا متحسرا على غال ، ولا مشغولا بنعمة سوى نعمة
رضاء الله ورحمته .

عندما يجيء الموت فإن الإنسان الشريف لا يفرغ ولا يتفجع ولا يبكى على الدنيا .. إنه ينتقل من دنيا الفناء إلى عالم البقاء .. إلى دار الخلد .. إلى جوار الله ورحمته وبركاته .

* * *

إن أحدا لا يرغب فى الموت ، ولا أحد يستعجله ، حتى الذى أوجعته العلة أو أذله الهوان ، فكما أن الحياة ليست ملكا لنا فإن الموت ليس طوع أمرنا .

إن الذين يشتهون الموت فى ساعة عصبية قد لا يجدونه قريبا .. أما الذين يهتمون بحياتهم بأيديهم فهم أشقياء يخالفون أمر الله ويجهلون حكمته ويرفضون نعمته ورحمته فى الدنيا والآخرة .

قد يقول قائل :

إذا كانت الحياة تنتهى يوما ما ، وإذا كانت الدنيا ضئيلة بالسعادة الدائمة ومطبوعة على الكدر والشقاء.. فقيم البقاء؟

لقد كتب الكتاب من رجال الدين والعلم والفلسفة كثيراً عن الحياة والموت ، فأجمعوا على عدة حقائق تقول بتقبل الحياة كما هي : لا بد من السعى ، لا بد من التمتع بالخيرات ، لا بد من الصبر على الشدائد ، لا بد من الشكر والحمد .. والباقي على الله .. هذا شأنه وتلك حكمته ..

ليست الحياة حلوة لأحد ولا سيئة لآخر.. على طول الخط . وإنما هي مسرات وأحزان ، ونجاح وإخفاق ، وخير وشر.. وهي لاتعجب أحدا بصفة مستمرة مهما كان حظه أمام الآخرين عظيماً !

إن حياة كل إنسان لا يمكن أن تخلو من قدر معين من الاضطراب والايخفاق والألم ..

ولهذا يعيش الناس على أمل . مهما كانت ظروف حياتهم ، وكل يمضى إلى هدفه لا ينتهى من أن يشقى .. ومهما كانت الحياة مرهقة ومخادعة فالكل يتمنون المزيد ويرجون طول البقاء .. وهو ما عبر عنه أبو العلاء فى بيته المشهور :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد

.. هذا الراغب فى ازدياد قد يكون شقياً أو محروماً أو مقترناً عليه فى الرزق . مثله مثل ذلك الخطاب البائس الذى قدمه الشاعر الفرنسى لافونتين ، فجعله ضيقاً بالحياة متحسراً على حظه من الضعف والهوان ، فهو يئن تحت

وطأة الأثقال التي يحملها والضنى الذي يعايشه والبؤس الذي يحتويه .. حتى إنه تمنى الموت .. ولكن ما إن استجيبت دعوته ورأى شبح الموت مقبلا عليه .. حتى فزع وارتج عليه ، وقال للموت نادما ومتوددا وتخاضعا :

أرجو أن تساعدني في حمل الأنخشاب على عاتقي ، ثم اغرب
عن وجهي فوراً .. إنني لا أريدك .. اذهب إلى غير رجعة !؟

لقد أحسّ الحطاب المسكين بأنه يرغب في الخلاص ويتمنى الموت فلما جاءه الموت عاوده الأمل والتعلق بالحياة والرضا بالهم والألم والتعب والدموع !

لهذا يقال إن حاصل الدنيا أمور وهمية انقادت إليها طبائع الناس ، وهي لا تبقى بتطلعاتهم وآمالهم ، وإنما تخدعهم وتكدر صفوهم ، ومع ذلك يغرمون بها ويحرصون على البقاء فيها مهما كان نصيبهم من النكد والبؤس والحُرمان بالغ المدى .

أرى أشقياء الناس لايسأمونها على أنهم فيها عرارة وجُوْعُ
أراها- وإن كانت تُحَبَّبُ- كأنها سحابة صيفٍ عن قريب تقشَعُ

* * *

عندما أحس أمير الشعراء شوق اقتراب منيته ، وقف في حديقة قصره المنيف- على ضفاف نيل الحيزرة «كرمة ابن هاني»- فجاس خلالها ببصره وسرح في أطنابها بفكره وروحه ، ثم فاجأ صاحبه بقوله :

« أليست كرمة ابن هاني واسعة الجوانب ؟

ثم أليست تتسع لخمسمائة قبر ، يتسع كل قبر لسته أموات ؟
إذن ، فهي تتسع لثلاثة آلاف ميت !

فبئس حرص الإنسان وبئست نفسه المدمنة على الشهوات * :

والنفس عماكفة على شهواتها تأوى إلى أحقادها وتثور
والعيش آمال تجبُّ وتنقضى والموت أصدق والحياة غرور
قال له صاحبه وهو يحاوره :

كيف تلح الآن في ذكر الموت ، وقد نهيتنا من قبل عن مجرد ذكره في مجلسك ؟

قال شوقي :

نعم.. ولكنى ماخفت الموت يوماً وما ذمته قط ، ولا لذت منه بالفرار ،
ولانقمت لأجله على الأقدار :

أنا مَنْ لا يرى الفرار من الموت ت ومن لا يرى من الموت بُدًا
إنما الموتُ مُنتهى كلِّ حَيٍّ لم يصب مالكاً من الملك خلدًا
سنة الله في العباد وأمر ناطق عن بقائه لا يُردًا

.. ولماذا الفرار من راحة بعد عناء ونعيم بعد شقاء ، فإن الحياة كعهلك
بها معصية ، عن الخطيرة مقصية .. حلوة عواقبها نغص .. ومشاربها غصص ..
أفعى خداعة ولذة لذاعة .. نعيش ونمضى في عذاب كلذة وفي لذة كعذاب ،

هـ في مثل هذا الخاطر قال أبو العلاء المعري :

صاح هندي قبورنا تملأ الر

حب فأين القبور من عهد عاد

وقال المتنبى :

نحن بنو الموقى فما بالناس

نعاف ما لا بد من شره

وقال إيليا أبو ماضي :

إن تحت التراب الذى ندوس عليه

ألف دنيا وعالم لا نراه

ونذهب من الأحلام كل مذهب ثم تنتهى هذه الأحلام إلى ذهاب .. ونبنى من التراب قصورا ونحن لعمر الحق تراب ، والفلك دائر مستقر ودولابه بالعالم سائر ، وعلى جانبه المرتقى المنحدر .. نقض إيوان كسرى من أساسه ، وأتى الأهرام من أم رأسه ، ودهى صحراء الحمراء فقوض منه أعظم البناء ، ولم تبق له الخطوب إلا عمداً قائمة كأنما هي على عباب الأيام عائمة .

أين رومية وقصرها ؟ وجنة الطلح ومعتمدها ؟ وأين نابليون ووصلته ؟ وصقر قریش ومنيته .. لقد صار القصر له قبرا ثم ذهب القبر وصاحبه وأصبح ذكرا فى الأفواه وخاطرا فى النفوس أو سطرأ فى الطروس .

* * *

إن غاية هذا الكتاب هى غاية الغايات فى ختام حياة الإنسان لحظة تصعد الروح إلى بارئها راضية مرضية ، وصاحبها على حال من الصفاء والرضاء والراحة والطمأنينة .

وفرق كبير بين نهاية المحسن العارف الصفّاح .. ونهاية المسيء الساقط الوالغ فى الشر والخطيئة !

وإذا كان لنا فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة فى حياته الجليلة فما أحوجنا أن نتملى من مشهد وفاته وأن نأخذ الدرس من لحظة مماته .. وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حياته ذروة الأمانة والإخلاص والجهد والعظمة الإنسانية ، وكذلك كان فى مماته قمة فى الصفاء والنقاء والرضى .

ونعم مسك الختام .

أوكما قال الصديق أبوبكر، ساعة أن انتقل رسول الله إلى الرفيق
الأعلى :

ما أطيبك حيًا

وما أطيبك ميتا

إنك ميت وإنهم ميتون

« إن المتقين في جنات وعيون
ادخلوها بسلام آمين »
صدق الله العظيم

سنة الله في خلقه ، يحيى ويميت ويبعث ، وهو على كل شيء قدير ،
فالحياة بداية والموت انتقال والبعث خاتمة والجنة مشوى المؤمنين .

وقد كشف الله تعالى لعباده جميع هذه المراحل ، وحدد لكل منها
خصائصها ، وأصدر أوامره ونواهيه لعلهم يوقنون ويتدبرون ويسمعون
ويطيعون ويشكرون .

فالموت حقيقة واقعة ، وكل نفس ذائقة الموت ، وأينا نكونوا يدرككم
الموت ولو كنتم في بروج مشيدة .

سبحانه .. خلق الإنسان لحكمة عليا وجعله في أحسن تقويم وميزه بالعقل
وخصه برسالة جليلة أن يعبد الله ويعمل الخير ويجاهد في سبيل الحق ويتمتع
بأطاييب الحياة ، ويعيش في الدنيا فترة - قد تقصر أو تطول - يكون فيها تحت
الاختبار ، ثم يميتته ، ثم يحييه يوم الحساب .. فإما إلى نار جهنم وبئس المصير
وإما إلى جنات النعيم حسنت مستقرا ومقاما

فما هي غاية الحياة ؟

يقول جل شأنه :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم «

(١٣ م الحجرات ٤٩)

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم «

(٢١ م البقرة ٢)

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون «

(٥٦ ك الذاريات ٥١)

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه

وإليه النشور «

(١٥ ك الملك ٦٧)

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا

وخير أملا «

(٤٦ ك الكهف ١٨)

« وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع «

(٢٦ م الرعد ١٣)

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من

بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير «

(٥٤ ك الروم ٣٠)

* * *

دعا الله عباده للإيمان والصلاح والعمل ، ونهاهم عن الكذب والنفاق
والظلم والبطالة ، وأحاطهم بأن كل عمل محسوب ومسجل ، فالذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم جنات الخلد ، والذين أساءوا مآلهم النار وبئس
القرار :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

(١٠٥ م التوبة ٩)

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة »

(٩٧ ك النحل ١٦)

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »

(٢٩ م الرعد ١٣)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا »

(٣٠ ك الكهف ١٨)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية »

(٧ م البينة ٩٨)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة »

(٨٢ م البقرة ٢)

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم »

(٩ م المائدة ٥)

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا »

(١١٠ ك الكهف ١٨)

« أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »

(١٩٥ م آل عمران ٣)

« قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكود له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .

(١٣٥ ك الأنعام ٦)

« والذين قتلوا في سبيل الله فلن أضل أعمالهم »

(٤ م محمد ٤٧)

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »

(١ م محمد ٤٧)

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »

(٢٤ ك النمل ٢٧)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود له أن بينها وبينه أمداً بعيداً »

(٣٠ م آل عمران ٣)

(١١٠ م البقرة ٢)

« إن الله بما تعملون بصير »

(١٤٩ م البقرة ٢)

« وما الله بغافل عما تعملون »

* * *

لقد حث الله سبحانه خلقه على العمل وجعل الجهاد والهجرة في سبيله أعلى مراتب العمل وأعظم درجة :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض »

(٧٢ م الأنفال ٨)

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم »

(٢٠ - ٢١ م التوبة ٩)

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً »
(٩٥ م النساء ٤)

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعاً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً »
(١٠٠ م النساء ٤)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون »
(٣٥ م المائدة ٥)

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »

(٦٠ م الانفال ٨)

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربنا الله »
(٣٩ و ٤٠ م الحج ٢٢)

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »

(٨٤ م النساء ٤)

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »

(٢٦١ م البقرة ٢)

* * *

وقد شاء الله لعباده أن يختبرهم ويبلوهم ويحاسبهم ويوفهم أجورهم . فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ولا تستوى الحسنة ولا السيئة :

« أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون »

(١٨ ك السجدة ٣٢)

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم »

(٣١ م محمد ٤٧)

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين »

(١٥٥ م البقرة ٢)

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً »

(٧ ك الكهف ١٨)

« ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ماء آتكم »

(١٦٥ ك الأنعام ٦)

«الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا»

(٢ ك الملك ٦٧)

« وليبتلي الله مافى صدوركم ولمحص مافى قلوبكم »

(١٥٤ م آل عمران ٣)

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون »

(١٥ ك الجاثية ٤٥)

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتعجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »

(٢١ ، ٢٢ ك الجاثية ٤٥)

* * *

وتنتهى حياة كل إنسان فى لحظة محددة ويحيته الموت ، فالموت نهاية كل حى ، وكل نفس ذائقة الموت .. حتى الأنبياء والرسل :

« إنك ميت وإنهم ميتون »

(٣٠ ك الزمر ٣٩)

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

(٣٤ ، ٣٥ ك الأنبياء ٢١)

« والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا »

(٣٣ ك مريم ١٩)

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »

(١٤٥ م آل عمران ٣)

« وإنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير »

(٤٣ ك ق ٥٠)

« وما تدرى نفس بأى أرض تموت » (٣٤ ك لقمان ٣١)

« كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون »

(٥٧ ك العنكبوت ٢٩)

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »

(١٥٨ م آل عمران ٣)

« هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »

(٦٨ ك غافر ٤٠)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »

(١٢ - ١٦ ك المؤمنون ٢٣)

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة »

(٧٨ م النساء ٤)

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل »

(١٦ م الأحزاب ٣٣)

« قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

(٨ الجمعة ٦٢)

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »

(١٦٢ ك الأنعام ٦)

* * *

هكذا يموت كل حى مهما كان شأنه ومكانه ، ثم تحق كلمة الله فيحى الموتى ، ثم يجمعهم إلى يوم القيامة ، وهو يوم الحساب :

« إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام

(١٢ ك يس ٣٦)

مبين »

« الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »

(٤٠ ك الروم ٣٠)

« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير »

(٦ م الحج ٢٢)

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها »

(١٩ ك الروم ٣٠)

« قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لارىب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون . والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ

يخسر المبطلون »

(٢٦ ، ٢٧ ك الجاثية ٤٥)

« ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »

(١٦ ك المؤمنون ٢٣)

« ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون »

(٥٦ م البقرة ٢)

« ويوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد »

(١٦ م المجادلة ٥٨)

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعىء مخلقهن بقادر على أن يجيئ الموتى بلى إنه على كل شيء قدير »

(٤٦ ك الأحقاف ٤٦)

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »

(٢٨ م البقرة ٢)

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » .

(٧ م التغابن ٦٤)

« وقال الذين أتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون »

(٥٦ ، ٥٧ ك الروم ٣١)

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »

(٢٨١ م البقرة ٢)

« وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور »
(٢٢ م الحج ٢٢)

* * *

وقد أحسن الله تعالى إلى عباده ، إذ بين لهم الخير والشر ، ونصح لهم ،
وبشرهم ، وأنذرهم حتى يصبحوا على بينة من أمرهم وإدراك لمصيرهم ،
فمنهم من اغتر بالدنيا وأفسد وطنى . ومنهم من آثر الآخرة فأحسن وأصلح
وهدى :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها
وهم لا يظلمون »

(١٦٠ ك الأنعام ٦)

« من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم »
(٦٩ م المائدة ٥)

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر »

(٢١ م الأحزاب ٣٣)

« إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأت مؤمنا

قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى»

(٧٤ ، ٧٥ ك طه ٢٠)

« فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

(٥٠ ، ٥١ م الحج ٢٢)

« وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تذكرون » .

(٤٠ ك غافر ٤٠)

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »

(٤٨ م البقرة ٢)

« إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا هم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون »

(٤ ك يونس ١٠)

« ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب »

(٥١ ك إبراهيم ١٤)

« إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى »

(١٥ ك طه ٢٠)

« وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »

(١٢٧ ك طه ٢٠)

« ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »

(٣٨ م النور ٢٤)

« من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون »

(٨٤ك القصص ٢٨)

* * *

ومع هذا البيان للناس ، فقد أُنذر الله عباده وبعث فيهم الأنبياء والرسل ، وخير عباده بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قبيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا »
(١ ، ٢ ك الكهف ١٨)

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير »
(٧ ك الشورى ٤٢)

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »
(٤٥ م الأحزاب ٣٣)

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »
(٢١٣ م البقرة ٢)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا »
(٢٨ ك سبأ ٣٤)

« إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا »

(٤٠ك النبأ ٧٨)

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير »
(١٩م المائدة ٥)

« إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ، فأما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »
(١٠٣ - ١٠٨ك هود ١١)

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين . إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . »

(٣٨ - ٤٣ك المرسلات ٧٧)

« إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا »

(١٧ - ٢٢ك النبأ ٧٨)

« وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا . إن للمتقين

مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا
ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا »
(٢٩ - ٣٦ ك النبأ ٧٨)

* * *

ويجىء الحساب يوم القيامة ، اليوم الموعود الذى لاريب فيه ، والذى بشر
الله به وأنذر منه ، فتجد كل نفس ما عملت حاضرا .. يوم تبيض وجوه وتسود
وجوه ، ولا عاصم من أمر الله ، ولا يظلم ربك أحدا :

« يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئٌ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .
اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم
الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مالم للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم
خائنة الأعين وما تخفى الصدور »

(١٦ - ١٩ ك غافر ٤٠)

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون »

(١ ك الأنبياء ٢١)

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئٌ عظيم »

(١١ الحج ٢٢)

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا .

اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »
(١٣ ، ١٤ ك الإسراء ١٧)

(٨٥ م البقرة ٢)

« ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »

« ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم وهم عذاب أليم . »

(١٧٤ م البقرة ٢)

« من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . »

(١٠٠ - ١٠٢ ك طه ٢٠)

« وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . »

(١١١ ، ١١٢ ك طه ٢٠)

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . »

(١٢٤ - ١٢٦ ك طه ٢٠)

« فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون »

(١٤ ك السجدة ٣٢)

« ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض . »

(٨٧ ك النمل ٢٧)

« الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . »

(١١ ، ١٢ ك الروم ٣٠)

« يوم لا ينفع مال ولا بنون . »

(٨٨ ك الشعراء ٢٦)

« يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضرا . »

(٣٠ م آل عمران ٣)

« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . » .

(١٠٦ م آل عمران ٣)

« ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد »

(٩ م آل عمران ٣)

« وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأتي لا تكلم نفس إلا

بإذنه فمنهم شقي وسعيد . »

(١٠٣ - ١٠٥ ك هود ١١)

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون . »

(١٤ - ١٦ ك الروم ٣٠)

« وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين . »

(١٤ - ١٥ ك المرسلات ٧٧)

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة .

ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة . أولئك هم الكفرة الفجرة .
(٣٣ - ٤٢ ك عبس ٨٠)

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم
ينصرون . »

(٤٠ ، ٤١ ك الدخان ٤٤)

« ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . »
(٣٧ ، ٣٨ ك المرسلات ٧٧)

« إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم
تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . »

(٤١ - ٤٤ ك المرسلات ٧٧)

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير »
(١٦٢ م آل عمران ٣)

« إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا .
لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا »

(٣١ - ٣٦ ك النبأ ٧٨)

« فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه
هاوية . وما أدراك ما هي . نار حامية . »

(٦ - ١١ ك القارعة ١٠١)

« لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون »
(٢٠ م الحشر ٥٩)

* * *

. . ثم تكون جهنم مأوى الذين عصوا ربهم وظلموا وأفسدوا في الأرض دون إدراك لمصيرهم وفي غفلة عما أُنذروا به ، فاستمروا اللهو والظلم والضلال :

« إنا من المجرمين منتقمون »
(٢٢٢ك السجدة ٣٢)

« إن المجرمين في ضلال وسعر »
(٤٧ك القمر ٥٤)

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون »
(٧٤ك الزخرف ٤٣)

« إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى »
(٧٤ك طه ٢٠)

* * *

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات وجاهدوا وصبروا ، فقد كتب الله لهم جنات النعيم :

« فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين »

(٨٥م المائدة ٥)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

(٤٢ك الأعراف ٧)

« إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين »
(٤٥ ، ٤٦ك الحجر ١٥)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا »

(٣٠ ، ٣١ ك الكهف ٢٢)

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد »

(٢٣ ، ٢٤ م الحج ٢٢)

وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيا غول ولا هم عنها يزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون . »

(٣٩ - ٤٩ ك الصافات ٣٧)

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين . »

(٧٣ - ٧٥ ك الزمر ٣٩)

« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . »

يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيہ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »

(٦٩ - ٧٣ ك الزخرف ٤٣)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »
(٨٢ م البقرة ٢)

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة . »
(١٢٤ م النساء ٤)

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . »
(١١١ م التوبة ٩)

« سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »
(٣٢ ك النحل ١٦)

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى »
(٤٠ ، ٤١ ك النازعات ٧٩)

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خللوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب »
(٢١٤ م البقرة ٢)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير »
(١١ ك البروج ٨٥)

« وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد . »

(٣١ - ٣٥ ك ق ٥٠)

« وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد . »

(٤٩ - ٥٤ ك ص ٣٨)

« إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا . جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا . »

(٦٠ - ٦٣ ك مريم ١٩)

« يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي . »

(٢٧ - ٣٠ ك الفجر ٨٩)

« إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر . »

(٥٤ ، ٥٥ ك القمر ٤٥)

« إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون

فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم »

(٥١ - ٥٧ ك الدخان ٤٤)

« إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلبان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون »

(١٧ - ٢٤ ك الطور ٥٢)

« والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحوور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزء بما كانوا يعملون »

(١٠ - ٢٤ ك الواقعة ٥٦)

« إن الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »

(٢٢ - ٢٦ المطففين ٨٣)

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام

على حبه مسكينا ویتما وأسیرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا . فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولازمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » (٥ - ٢٢ م الإنسان ٧٦)

تعددت الأسباب والموت واحد

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد
ابن نباتة السعدي

من الشعر الجيد ما يزال يذكر رغم مرور مئات السنين. يتمثل به المتحدثون ويتغنى به المنشدون ويتردد صدها في الأندية والمدارس على الزمن ، فهو قول حكيم أو نظم بديع يصلح لكل العصور ويداعب جميع المشاعر ويحدث أثره في النفوس مادام قد أدلى بحقيقة بارزة أو طرفة نادرة أو رواية لاختلاف عليها .. ومنه هذا البيت الذي جاء عنوانا لهذا الفصل من الكتاب :

ومن لم يميت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد
أراد الشاعر أن يستحث قومه على الجهاد ويحرضهم على القتال إذ رأى منهم من يؤثر القعود أو يخشى الهلاك ، فهو ينهم إلى أن الموت لا يمكن في ساحات الحرب وحدها ، ولا تحذته أسلحة القتال وحسب .. ولكن الإنسان يموت حين ينتهى أجله ، وقد تعدد أسباب الموت ولا يفلح شيء في رده أو تأجيله ، يستوى في ذلك القوى والضعيف والغني والفقير والسليم والعليل :

يموت راعي الضأن في جهله مودة جالينوس في طبه
إن الموت يحل بالإنسان بأقوى أو بأوهى الأسباب ، في أى مكان ولو اختبأ في برج مشيد ، كما أن السيف ليس وحده أداة الموت ، لأن الموت يجيء بوسائل متعددة ويغدو في لحظات غير مرتقبة .. وغالبا ما يُفاجأ الناس بلحظة الموت حتى في ظلال الراحة والقعود .

وقد يخف الرجل المجاهد إلى ساحة القتال ويمضى أياما أو أكثر بين طعن القنا وطلقات الرصاص فلا يقتل ولا يصاب بأى أذى ، ويخرج من المعركة سليما معافى .. ثم يموت بعد ذلك - ربما لأتفه الأسباب - وهو آمن فى عقر داره .

ومن فرسان الحروب من يتعرضون للقتل فى مواقع الخطر ومواطن الانفجار ولكن ينأى الموت عنهم ، وقد كان النبي - صلوات الله عليه - يناجز ويتقدم فى أخطر ساحات القتال ، وكان على بن أبى طالب يتقدم متطوعا لمبارزة أقوى الخصوم ويقول : أبل موت تخوفوننى؟ والله إنى لأبلى أسقطت على الموت أم سقط الموت على .. ورغم إقدام على وبسالته فإنه لم يمت بالسيف ولم يسقط عليه الموت فى الحرب .. وإنما قُتل غيلةً ، وبأبدى خصومه المتآمرين عليه .

ولم يكن فى جسد خالد بن الوليد موضع شبر ليس فيه ضربة سيف أو طعنة رمح .. وخرج خالد من أشد المعارك هولا وهو متوج بعلامات الشجاعة والبطولة .. ولم يمت إلا على فراشه ، كأى إنسان لم يعرف الحرب ولم يمتشق السيف ولم يتعرض للمكارة !

.. حتى الذين يطلبون الشهادة فى ساحة الشرف والواجب قد ينأى عنهم الموت ، والذين يحاربون فى معمران الخطر قد تحوطهم السلامة ، فيعيشون بعد المعركة ويموتون بعيدا عن ساحة القتال ومحرمون الفوز بالمجد والفخر والاستشهاد .

فحين يقول الشاعر : من لم يمت بالسيف مات بغيره .. فإنه بذلك يسجل واقعا ، وهو فى الوقت ذاته يوجه نداء صادقا ودعوة صحيحة ، ولكن الكثيرين لا يدركون واقعها وصحتها .. إن الذين يخافون الموت فى الحرب ينسون ان الموت قد يدركهم حتى لو كانوا فى كهوف خافية أو بروج عالية ! .

وإذا كانت الحرب مخوفة أو مخوفة بالمكاره إلا أن العمر غير مرتبط بموطن
الخطر فالإنسان يموت حين ينتهى أجله ، فى مكان معين ووقت معين وأسلوب
معين ..

من هنا تتضح حقيقة أن الانضمام إلى الجيش أو خوض الحرب ليس
إقداما على الانتحار أو إلقاء النفس فى التهلكة .. وقد ينبو السيف فلا يقطع وتمر
الرصاصه ولا تصيب ، ويخرج المقاتل الجسور من حومة الوغى بلا أدنى إصابة أو
أقل خدشة .. فالجرب ليست ساحة موت للجميع ، والموت له أسباب عديدة ،
واحده منها سلاح القتال .. ولذلك يعجب الإنسان كيف يخطف الموت رجلا
صحيح البنية أو طفلا صغيرا لم يتجاوز شهورا أو أياما .. ولله در أمير الشعراء
شوقى :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه كل امرئ رهن بطىء كتابه
يموت الإنسان حين ينتهى أجله بالسيف أو بغيره ، وفى حومة الوغى أو فى
كنف الخبأ ، ويموت مقاتلا أو هاربا ، مريضا أو شديد القوة .

ويموت الإنسان وهو فى أتم صحة وفى أحلى متعة ، يموت وهو يضحك فى
الملهاة ، وهو يتأثر فى المأساة .. يموت وهو نائم .. وهو ماش .. يموت وهو يتناول
أكلة شهية ، وهو يمارس هواية محبوبة ..

ويموت الإنسان وهو فى بطن أمه ، أو فى معمعان شبابه ، وقد يعيش طويلا
وهو يعانى مرضا قاسيا أو جرحا داميا ، أو ضعفا أو عجزا فتمتد به الحياة إلى أرذل
العمر ..

ويموت الرجل الغنى ، والملك السلطان ، والعالم القدوة ، والقائد المرعب ،
والبطل الرياضى ..

وما القول فيمن يهدم على رأسه البيت فيخرج سليما ، ومن تسقط من نافذة
عليا فتقع على رأس رجل فتنجو الفتاة ويموت الرجل الذى يمشى فى الشارع آمنا
مطمئنا .. وتوجه النيابة إلى الفتاة تهمة قتل الرجل .. بطريق الخطأ !
وما أكثر الروايات والنوادر حول أعاجيب الموت ..

احترقت طائرة بكل ركابها إلا رجلا واحدا قذفته الصدمة على بعد أربعين
مترا .. ولما نظر حوله وجد إلى جانبه حقيبة ملبسه .. التى كانت فى مخزن بضاعة
الطائرة !

نشرت الصحف خبرا عن سقوط منزل فى حى « الظاهر » بالقاهرة وقتل
جميع سكانه .. وضيو فهم ! ولكن أربعة أشخاص تم إخراجهم سالمين من تحت
الأنقاض .. بعد ثلاثين ساعة ! منهم ثلاثة أطفال تكبرهم فتاة فى الرابعة من
عمرها ، وأختين أصغر منها سنا ، وقد فقدوا أباهم وأمهم وأخاهم الأكبر ..؟
وفى رواية أخرى - تماما مثل تصوير الخدع السينائية - لا يتبادر إلى ذهن
أحد أن تسقط طفلة لم يتعد سنها أصابع اليد الواحدة من ارتفاع ستة طوابق ..
ولا يصيبها أذى ! فقد لعب القدر لعبته لإيقاظها ، وهكذا صدق المثل الذى
يقول : « اعطنى العمر وارمنى فى البحر » .

كانت الأم مشغولة بإرضاع صغيرها ، وقد تركت ابنتها التوأم فى الحجرة
المجاورة لتلعبان . وفجأة طرأت لها رغبة التسلق إلى النافذة لمشاهدة ماجرى فى
الشارع ، وفقدت إحداها توازنها مما أدى إلى سقوطها من ذلك الارتفاع الشاهق
فأقطة النطق والحياة .. وسقطت أختها التوأم بعدها مباشرة فى اللحظة التى كان
أحد أبطال الرياضة يشاهد الحادث الأول فأسرع بالتقاطها ..

فالسقطة واحدة ولكن الموت كان في انتظار الأولى ، وقد اقتنصها ، والثانية لم تكن قد استوفت عمرها ، فالتقطها القدر على يد البطل الرياضي الذي اختطفها من الموت !

ولعل كثيرين يذكرون حادث الطائرة الهليكوبتر المصرية التي اصطدمت في عامود واحترقت في الصحراء الغربية وكان يستقلها وزير الحربية وثلاثة عشر جنرالاً فماتوا جميعاً خلال ثوان معدودات .. ونجا السكرتير العسكري للوزير وقد كان يجلس في مؤخرة الطائرة ، كما نجا طاقم الطائرة الذي يجلس في مقدمتها ! ؟

وفي رواية فرنسية أن زوجاً وزوجته تناقشا وتشاجرا وهما على سطح باخرة تمخر عباب المحيط واشتد التأثير بالرجل حتى ألقى بنفسه في البحر وابتلته الأمواج .. ليتخلص من عناد زوجته ومشاجراتها التي لا تنتهى .. وصرخت الزوجة وأمر القبطان بفرقة الغطس فقفزت وعادت بعد دقائق بجثة الغريق .. ولدهشة الجميع كان الرجل غير الرجل .. فقد جاءوا بإنسان آخر تصادف سقوطه من زورق صيد حطمته العواصف .. وهكنا غرق الرجل الذي انتحر .. لكى يعود إلى الحياة رجل آخر كان مقضياً عليه بالهلاك ! ؟

ولا يعرف الموت كبيراً أو صغيراً ، الكل عنده سواء فينقض على الملك الجبار .. ولا تستطيع قواته الحربية والبحرية والجوية أن تحميه ، ويقبض روح المليونير فلا تصلح ملايينه لرد الموت ..

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كثرنا الكنوز فما بقين. ولا بقوا

روى أن أحد ملوك فرنسا صنع لنفسه نعشاً فور استلامه تاج الملك ، وجعل في سقف النعش فتحتين من أعلى .. وأقام حفل استقبال كبيراً حضره وزراءه وأهله .. لكى يفاجئهم بما أدهشهم .. إذ قام بعمل بروفة لموته ، فتوسد نعشه

وأخرج كلتا يديه من الفتحتين العلويتين ، وفرد أصابع كفيه .. ولما سئل في ذلك قال :

« لكي يعلم الناس أن ملك فرنسا خرج من الحياة خالي الوفاض .. لم يأخذ شيئا معه » .

وتلك الصورة قريبة من القول الشائع : ليس للكفن جيوب .

وإذن فالناس متساوون أمام حكمة الموت ، لا فرق بين ملك أو قائد أو مليونير أو طبيب أو مريض :

يموت راعي الضأن في جهله مودة جالينوس في طبه
كان جورج الخامس ملك بريطانيا وامبراطور الهند - الذي لا تغيب الشمس
عن امبراطوريته - يضع على مكتبه مصباحا منقوشا عليه :
إنك تعيش مرة واحدة .

إن الأسد المرعب لا ينفعه زئيره الرهيب ولا أنيابه الفتاكة في صد الموت .. بل
إنه يقف حائرا وعاجزا أمام أنفه الحشرات .. حينما يلتهم النمل أشباله عند
ولادتهم :

وما الموت إلا سارقٌ دقّ شخصه يصول بلا كفٍ ويسعى بلا رجل
يردُّ أبو الشبل الخميس عن ابنه ويُسلمه عند الولادة للنمل
.. والجلبل الأشم يسقط من عليائه ، والصخر الصلب يتحطم .. إذا ما وقع
زلزال أو انفجر بركان .. بأمر الله :

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى
فيها عوجا ولا أمنا »
(١٠٥ - ١٠٧ ك طه ٢٠)

« تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هذا »

(٩٠ ك مريم ١٩)

وإذا كان هذا الموت للإنسان والحيوان والجماد . وتلك سنة الله في خلقه فماذا يمنع الإنسان من الجهاد ، وفيه خشيته من الإقدام . ولم عزوفه عن خوض المهالك في سبيل الحق والواجب ؟

عندما تشاور النبي - صلوات الله عليه - ، مع صحبه في شأن المشركين الذين واصلوا العداة واشتدوا في الإيذاء .. قال المقداد بن عمرو :

« يا رسول الله امض لما أمر الله فنحن معك ، والله لائقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ! .. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » .

وقال سعد بن معاذ :

« امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل ، وما نكره أن يلتقى بنا عدونا غدا .. إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء » .

هكذا أدرك المؤمنون الحقيقة الكبرى ، وصاروا يقدمون على الجهاد . وهم يعلمون أن الأعمار بيد الله ، وأن غاية المؤمن إحدى الحسينين : الظهور أو الشهادة ..

وفي القرآن الكريم :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »

(١٤٥ م آل عمران ٣)

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لامتمعون إلا قليلا .
قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون
لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » .

(١٦ ، ١٧ م الأحزاب ٣٣)

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا
الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .
ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف
سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمرّ والله بصير بما يعملون » .

(٩٤ - ٩٦ م البقرة ٢)

* * *

وقال الشعراء كثيرا في ذم القعود عن الجهاد ، والفرار من الوغى ، فإذا كانوا
يكروهون الحرب فلا ينبغي لهم أن يخافوها إذا دعا داعي الجهاد والتضحية ، لأن
أمور العالم تدور حول محور القوة ، ولأن الدفاع عن الأرض والعرض من أسمى
واجبات الشرفاء ، وقد أحسن أبو الطيب المتنبي في ذلك الوصف الرائع والحقيقة
العارية :

كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويُقفلُ من كانت هزيمته رعبا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهما بها حبا
فحبّ الجبان النفس أورثه التقي وحبّ الشجاع النفس أورده الحربا
وقال غيره :

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجي ؟

وقال حكيم :

« إن عدة الجندي في الحرب كفاحه لاسلحه .. وإذا ما وضعت الرهبة في يد الجندي سلاحا ، فإن الرغبة هي التي تضع في نفسه كفاحا » .

هكذا نرى أن الموت قدر لا قدرة لأحد على تفاديه ، وهو حق على كل إنسان لا قبل له بدفعه أو تأخيره .. فهو نافذ المفعول على الجميع ، وهو حادث بأى سلاح أو بغير سلاح ، وهو يجيء بدون طلب ، وقد يتعذر على الراغب في شدة ضيقه وعلى المريض في قمة يأسه .

قال الشاعر إسماعيل صبري في ساعات وهنه :

ياموت خذ ما أبت الأيا م والساعات منى
بيني وبينك خطوة إن تخطها خففت عني

وقال آخر :

يارب لا تبقي إلى زمنٍ أكون فيه كلاً على أحد
خذ بيدي قبل أن أقول لمن ألقاه عند القيام خذ بيدي

* * *

٤

الموت بالجملة

« وفي مخزون السلاح النووي
لدى موسكو وواشنطن حاليا
ما يكفي لتدمير العالم كله
أكثر من عشر مرات » ! ؟

ينزل الموت بالجماعة جملة كما ينزل بالفرد واحدا ، ويحل بالبيت فيأخذ بأرواح جميع سكانه أو بعضهم . وكذلك القرية البسيطة والمدينة ذات الملايين فيقضى قضاء عاجلا ناجزا .. ذلك أمر الله وتلك حكمته ولا راد لقضائه ولا قدرة على إدراك مداه .

ويحيى الموت بالجملة في صور متعددة : الحريق ، والوباء ، والزلازل والبراكين ، والعطش والجوع ، والريح الصرصر والفيضان الجارف ، وشدة الحر وزمهرير البرد .. والحرب الضروس التي تأتي على الأخضر واليابس فلا تبقى ولا تذر .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن الموت الزؤام والدمار التام الذى حل بعاد وشمود وآل مدين وأصحاب الفيل .. وأضرابهم من الفئات الضالة والجماعات الكافرة . «الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت شمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

(١ - ٧ك الحاقة ٦٠)

« فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعدنا للظالمين عذابا ألما »

(٣٦ ، ٣٧ ك الفرقان ٢٥)

« وفي عاد إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتذمر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »

(٤١ ، ٤٢ ك الذاريات ٥١)

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود »

(٨٢ ك هود ١١)

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يكنوا فيها ألا بعدا للمدين كما بعدت ثمود . »

(٩٤ ، ٩٥ ك هود ١١)

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »

(١٩ ، ٢٠ ك القمر ٥٤)

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر »

(٣١ ك القمر ٥٤)

« إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون . »

(٢٩ ك يس ٣٦)

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة

تأخذهم وهم يخضمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون »
(٤٨ - ٥٠ ك يس ٣٦)

« وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم
أظلم وأطغى . »

(٥٠ - ٥٢ ك النجم ٥٣)

« فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن
الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا
صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة
أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم
صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . »

(١٥ - ١٧ ك فصلت ٤١)

« ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل .
وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف
مأكول . »

(١ - ٥ ك الفيل ١٠٥)

« فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا
قوما عمين . »

(٦٤ ك الأعراف ٧)

« فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا
مؤمنين . »

(٧٢ ك الأعراف ٧)

« ولذا فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » .
(٥٥ البقرة ٢)

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .
(١٣٦ الأعراف ٧)

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قاتلون » .
(٤٤ الأعراف ٧)

« ولذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . »
(١٦ ، ١٧ الإسراء ١٧)

* * *

هذه وغيرها من آيات الله البينات عن هلاك أقوام ظالمة قتلتهم صيحة داوية ،
أوريج عاصفة ، أو عطش قاتل ، أو حجارة ملتبة ، أو صاعقة ماحقة .. وغير
ذلك من أدوات القتل الجماعي والموت الشامل الذي عرفنا مثيلا له في عصرنا
الحاضر باسم القنبلة الذرية .. وقد أقيمت قبلة ابتدائية فدمرت مدينة هيروشيما
وقضت الثانية قضاء تاما على مدينة نجازاكي .. حدث ذلك في اليابان عندما
قضت عليها الولايات المتحدة بالتسليم بلا قيد ولا شرط .. وقد حل بكل من
المديتين دمار كامل فلم ينج إنسان من الموت .. وكان استخدام القنبلة الذرية
أحدث وأخطر الوسائل الجهنمية لقتل الملايين في خلال دقائق معدودات .

وقد حدثنا التاريخ عما حلّ بالبشر من كوارث ونكبات من صنع الطبيعة التي
قضت بها على مدن بأسرها وشعوب بأكملها .. فحصد الموت آلاف الأرواح
مستخدما الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير والحرائق والأوبئة ..

عندما تغضب الطبيعة وتكشر عن أنيابها وتقذف بحممها ومتفجراتها فإنها تقضى قضاء مريعا على آلاف الضحايا ، وتنسف مرافق الحياة ، وتحول أهدافها من مدن عامرة وقصور شماء وحداثق مثمرة إلى أنقاض وخرائب لاحسن فيها لإنسان أو حيوان .

وحادثة الموت بالجملة قد يشترك في أحداثها الإنسان والطبيعة معا ، عمدا أو قضاء وقدرًا .. فقد يشتعل الحريق بخطأ إنسان وما تلبث الرياح حتى تؤدي دورها لإكمال المأساة فتشتد النيران وتمتد ويتضاعف ضحاياها أرواحا ومنشآت ، ومن أشهر الحرائق في التاريخ «حريق روما» الذي أشعله الامبراطور المعتوه «نيرون» فقد أحرق روما وهو يتسلى بألة موسيقية ويهدر بصوته القبيح بينما النار تلتهم المدينة وتحرق الناس بالجملة !؟

وكذلك كان «حريق شيكاغو» الذي أطلق عليه «الحريق الكبير» - ١٨٧١م - وقد بدأ حريقا محدودا لم يستدل على مصدره أو مرتكبه ولكن الطبيعة لعبت دورها الخطر فقد امتد الحريق بفعل الرياح عدة أميال واندفعت النيران بسرعة هائلة فقضت على أحياء متتابعة ، ودفعت مليوني مواطن إلى الفرار مذعورين كالجائنين طلبا للنجاة ، وأسفر الحريق عن قتل ثلاثمائة شخص وتسرير تسعين ألفا وتدمير ما قيمته ١٩٦ مليون دولار من المرافق والمنشآت .

وقد اجتاحت الولايات المتحدة في سنة ١٩٨٠م أعاصير شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة هبت على ولاية تكساس مما تسبب في مصرع ٨٠ شخصا وإصابة ٢٨٠ آخرين فضلا عن مئات المفقودين ..

كذلك لقي عشرة يابانيين مصرعهم وأصيب أحد عشر آخرون كما تشرذ ١٤ ألف شخص عقب أسوأ إعصار اجتاح وسط وشمال اليابان ، كما أسفر الإعصار

عن تدمير أحد عشر جسرا وأحدث خللا بالمواصلات البرية والبحرية والجوية ..
وأُسفرت ثورة بركان في المكسيك عن مقتل مائة شخص وإصابة خمسمائة
آخرين وتدمير مساكنهم ومنشآتهم ومصانعهم مما حول المنطقة إلى خرابة كبيرة .

ويروى علماء الطبيعة في أيامنا هذه أن جو العالم يكتسب دفءا متواصلا بسبب
تزايد كمية ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض نتيجة لعمليات حرق الوقود
المتزايدة مما سوف يؤدي إلى ذوبان القشرة الجليدية بالمنطقة القطبية الجنوبية ،
وهذا من شأنه إغراق مساحات واسعة من الأرض الواطئة في مناطق كبيرة من
العالم ، كما أن ارتفاع حرارة الجو وتضاعف كمية ثاني أكسيد الكربون مرتين في
الجو سوف تسبب حالات جفاف في عدة ولايات أمريكية وبلدان عديدة في
وسط آسيا ..

ومن الجفاف القاتل إلى الفيضانات الكاسحة يلقي الناس حتوفهم بسبب
تقلب الطبيعة ، فعندما يزداد معدل الأمطار عن مستواها المعتاد تجتاح وديان
الأنهار فيضانات مدمرة .. أما عندما تتوالى سنوات الجفاف تحل المجاعات وتنتشر
الأوبئة ويهرب الآلاف مذعورين ويتنشر البؤس وتحل القوضى ..

ويزيد الموقف قتاما وضياعا تزايد البشر في المناطق الفقيرة نتيجة فقدان الوعي
الصحي والاجتماعي ، حيث يكثر النسل ويقل العمل ويموت الناس جوعا
ومرضاً .

وفي مناطق كثيرة من الهند والسودان تنفق في فصل الجفاف قطعان الماشية
ويموت الأطفال من العطش وتبور الأرض وتزداد معاناة المساكين ..

وقد يحل القحط بأرض فيصاب أهلها بالمجاعة ويحصد الموت ما قدر له من

حياة الإنسان والحيوان والنبات .. وإذا كان هناك عذر لما يحدث في الماضي حيث ضرب الجهل أطنابه وغفل الناس عن صواحلهم فما العذر في عصر المدنية والحضارة ، وفي ظلال التكنولوجيا الحديثة ، وتحت سمع وبصر الدول الغارقة في الغنى والسابقة في مضمار التقدم والتطور؟.

لقد قتل الجوع مائة ألف إنسان في أثيوبيا (الحبشة) في سنة ١٩٤٧ بينما كان عاهل البلاد الأمبراطور هيلاسيلاسى يمتلك الثروات الضخمة والمجوهرات الثمينة .. ثم حل القحط بالأمبراطور نفسه على حين غرة عندما دهسته ثورة الجيش ونقلته من قصره الشامخ إلى حجرة أرضية رطبة حقيرة حتى لقي حتفه ذليلا مسكينا .. بلا مجوهرات ولا ملايين !

وكذلك انتهت حياة الأمبراطور الطاووس شاهنشاه إيران هاربا مريضا باثسا يائسا .. وكانت ثروته تقدر ببلابين .. بينما كان ملايين البشر من شعبه يعيشون في فقر ونكد .. وقد بلغ من ثرائه أنه طلب أن تصنع له سيارة كاديلاك ذات مواصفات خاصة تكون فريدة من نوعها مضادة للرصاص والقنابل ومزودة بحوامل للمدافع الرشاشة وفتحات تهوية تستعمل في حالة إلقاء القنابل المسيلة للدموع .. كما أنها مزودة بجهاز للرادار وبنظام ألكتروني مضاد لعمليات الاختطاف ! .

وتكلفت صناعة هذه السيارة ٢٤٥ ألف دولار .. ولم يركبها الأمبراطور الطاووس .. فقد انتهت حياته قبل أن يتم صنعها فلم يتيسر لها حمايته من الرصاص والقنابل وعمليات الاختطاف .. والمرض ! ؟

والعجيب في زمننا هذا أن يموت الناس جوعا بالجملة ، ومن الأمثلة البشعة والمخزية أن يموت مائة ألف إنسان في دول الساحل الغربي الإفريقي بسبب القحط

الشديد طوال ست سنوات متتابة دون أية مبالاة من دول العالم الغنية التي تلقى الزائد من إنتاجها في البحر .

بل إن أخطار المجاعات تتضاعف في هذا العصر الذى اشتهر باسم « عصر التكنولوجيا المتطورة » .. واسم «العالم الواحد» ! بينما بلاد بأسرها تقطنها عدة ملايين تعيش على ماتجود به الأمطار أو ماتتركه الأوبئة أو مالا تفعله السيول والأعاصير ..

إن هامش الأمان يتناقص في عالمنا العصرى ..

لقد أصدر مجلس البيئة الأمريكى بالاشتراك مع وزارة الخارجية تقريرا من ٨٠٠ صفحة بعد عمل استمر ثلاث سنوات - بناء على طلب الرئيس جيمى كارتر في سنة ١٩٨٠ - وقد تضمن التقرير مؤشرات تنذر بالخطر الوخيم حيث سيصبح العالم سنة ٢٠٠٠ أكثر ازدحاما بالسكان وأشد تلوثا وسيفقد عنصر التوازن بين مكونات البيئة ويصبح أكثر تعرضا للاضطرابات والتقلبات عن العالم الذى نعيشه اليوم إذا استمرت الاتجاهات الحالية في الزيادة السكانية واستنزاف موارد الطاقة والثروات الطبيعية ..

جاء في ذلك التقرير أن عدد سكان العالم سوف يبلغ ٦,٣٥ مليار نسمة في نهاية القرن الحالى يعيش منهم خمسة مليارات نسمة عند الحد الأدنى للبقاء الإنسانى في الدول النامية . كما يزداد من يعانون أمراض سوء التغذية من ٦٠٠ مليون شخص حاليا إلى ٣ مليارات شخص في سنة ٢٠٠٠ - ذلك لأن الزيادة الإضافية المرتقبة في الإنتاج الغذائى لن تكفى لملاحقة الزيادة السكانية ..

إن نصف سكان الهند - وهم ٦٠٠ مليون إنسان - يعيشون على الكفاف

إنه بين كل عشرة من البشر في عالمنا هذا يوجد ستة أشخاص مهددون بالموت
جوعاً ! .

إن ٢٤٠٠ مليون من البشر يهددهم الجوع ويعانون من سوء التغذية ..

إن ١٨٠٠ مليون إنسان يعانون من نقص البروتين ..

إن بعض الدول الفقيرة وصل بها حال أبنائها أنهم يأكلون وجبة الغداء دون
أن يضمّنوا وجبة العشاء .

إن ألف طفل يموتون كل ساعة بسبب الافتقار إلى المياه النقية - بناء على تقرير
منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨٣ - فالمياه الملوثة تؤدي إلى إصابة الأطفال بالهزال
ثم الوفاة ..

إن الجوع في بلد مزدحم بالسكان فقير الموارد مثل كمبوديا التي اجتاحتها
جارتها فيتنام أصبح فيها الموت بالجوع مثل القتل بالرصاص .. وفي وسط الجبال
والغابات يفر الكمبوديون - في سنة ١٩٨٣ - على أقدامهم قاطعين مسافات
شاسعة للوصول إلى حدود تايلاند حيث يتولى صندوق رعاية الطفولة التابع
للأمم المتحدة توزيع الأرز على هؤلاء المساكين ثم يعودون إلى أرضهم التي
دمرتها المتفجرات ، وهم في طريق ذهابهم للحصول على القوت وفي طريق
عودتهم بالأكل لأهليهم يتعرضون للطلقات الطائشة ، وقد دمرت الحرب كل
مرفق وأتت على كل زرع .. ولذلك يغامر القادرون منهم بعبور بوابات الموت حتى
لا يموتون ويموت أهليهم جوعاً .

ويكفي وصمة لعالمنا التكنولوجي أن يعلن ممثل منظمة الأغذية والزراعة التابعة
لهيئة الأمم المتحدة في « نيروبي » أن ٦٠٪ من سكان أفريقيا (٤٥٠٠ مليون

نسمة) لا يجدون ما يسد رمقهم من الطعام وأن ستة وعشرين دولة في أفريقيا تعاني من نقص مزمن في الغذاء ؟!

وقد كانت المجاعات في الماضي تلقى العون أو يُمهّد للتقليل من خطرها بالاستعداد في أيام الوفرة لأيام القحط .

جاء في سورة يوسف :

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلی أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . »

« ٤٣ - ٤٩ ك يوسف ١٢)

* * *

وتعتبر الزلازل من وسائل الموت بالجملة التي تحدثه الطبيعة ، وقد حدث في العالم - كما أوردت الانسكلويديا البريطانية - ٥٠٠٠ زلزال منها مائة زلزال كبير قضت على المناطق التي حدثت فيها بالدمار التام ، وقد توالى حدوث الزلازل بمعدل زلزال كل سنة ، ومن أشد الزلازل التي حدثت في العالم زلزال لشبونة سنة ١٧٥٥ وزلزال مدريد ١٨١١ وزلزال سان فرنسيسكو ١٩٠٦ وزلزال طوكيو ١٩٢٣ ..

وقد قتل في زلزال لشبونة ٦٠ ألف إنسان وفي زلزال طوكيو ٧٤ ألفا . وذلك غير ما حل بتلك البلاد من دمار وخراب في المنشآت والمرافق العامة .

ومن أبرز أحداث الزلازل مصرع ١١٣ ألف إنسان خلال سنة ١٩٧٦ في الصين والفلبين وإيطاليا وتركيا ..

وقد بلغ عدد ضحايا الزلزال العنيف الذي اجتاح إيطاليا في شهر نوفمبر ١٩٨٠ : ٩٠ ألف شخص قتلوا .. غير عدة آلاف أخرى جرحوا وتشردوا ، وقال الخبراء إن قوة الزلزال قد عادت ٣٥ مليون طن من المواد الناسفة .

وفي ذات مرة اهتزت الأرض في جواتيمالا لمدة ٢٥ ثانية ، وكانت النتيجة : ٣٠ ألفا قتلى و ٦٠ ألفا جرحى ومليون متشرد ..

وقد نكبت إيران في هذا القرن بعشرين ألف زلزال ، منها ٢٠ زلزالا أهلكت ٦٠ ألف شخص ..

ولعل أكبر زلزال حدث في القرن العشرين هو زلزال « تانجستان » - في الصين - الذي قتل ٧٥٠ ألف شخص في أحد أيام سنة ١٩٧٦ ..

أما في الجزائر فقد ضاع ٧٠ ألف قتيل وجريح ضحايا زلزال مدينة « الأصنام » في سنة ١٩٧٩ حيث تهدم أكثر من ثلاث أرباع المدينة فسويت بالأرض تماما .

وفي القرآن الكريم :

« إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها »

(١ - م الزلزلة ٩٩)

ويرتبط اسم الزلزال في الحديث عن الطبيعة بقاتل جماعي آخر هو البركان ،
ومن أشهره بركان « فيزوف » في إيطاليا ..

وقد حلت بمدينة بومبي في جنوب إيطاليا كارثة من أفدح ما أحدثته الطبيعة
(سنة ٧٨ ميلادية) عندما ثار الجبل ، وانفتحت فوهته ، وأخذ بطن الأرض
يقذف حمما متقدة ، ورمادا ملتبها ونارا حامية ، طوال ثلاثة أيام متوالية تم فيها
دفن مدينة بومبي ، واختفت تماما تحت سقف من التراب وحطام الصخور ،
وتكاثف البخار ، وهطل المطر غزيرا ، واختلط تراب الأرض بالرماد البركاني
مكونا طميا لزجا انحدرا إلى أسفل الجبل ليحاصر المدينة بأسرها ويغمرها كلية ، ثم
تجمد الطمي فصار كالأسمت المسلح .. وبهذا اختفت المدينة نهائيا إلى أن
اكتشفت بعد ذلك بألف وستائة سنة .. والعجيب أن المواد البركانية التي صنعت
سقفا للمدينة حجبا عن العالم قد حافظ عليها برمتها .. ويرى السائحون الذين
يغدون على إيطاليا عجبا عند زيارتهم لمدينة بومبي التي رفع عنها سقفها البركاني
فبدت مدينة كاملة بمبانيها ومرافقها ..

أما بركان فيزوف فلم يتوقف عن ثورانه كل بضع سنين ، يتفجر ويقذف
كميات هائلة من المواد البركانية ، والبخار الساخن ، والحمم المشتعلة ، وقد قتل
١٨ ألف إنسان في ثورته سنة ١٦٣٠ ، كما عاد في سنة ١٩٠٦ فاستمر ثمانية عشر
يوما يقذف حممه وتواكبه هزات أرضيه شديدة .

وقد حدث في عصرنا هذا عدد من البراكين الشديدة في إيطاليا وفرنسا
واليونان وإيسلنده ، وهناك يطلقون عليه اسم « جبل النار » أو « بوابة الجحيم » ..

وتعد الأعاصير من أخطر أسلحة الطبيعة في عمليات القتل الجماعي والدمار
الشامل ، وقد أطلق عليها بحق اسم « الشيطان القاتل » ، ومن نماذجها إعصار الهند

الذى اجتاح ولاية « أوتار براديسن » - الواقعة على الساحل الشرقى - فقتل ٢٠ ألف مواطن ، ودمر مايزيد على مليون ونصف مليون هكتار من زراعة الأرز والدخان ..

أما إعصار الهند سنة ١٨٦٤ فقد راح ضحيته مايزيد على ٣٥ ألف شخص .. وقد توالى الأعاصير على سواحل أمريكا منذ سنة ١٩٠٠ بادئة بإعصار قتل ١٣ ألف شخص حيث ارتفعت مياه المحيط إلى أكثر من ٢٠ قدما ، وفى سنة ١٩٢٨ دفعت الرياح الشديدة مياه البحر الطاغية فقتلت ١٨٣٦ شخصا ، وبعد عشر سنوات هب إعصار ثالث على نيوزانجلند ، وراح ضحيته ٦٠٠ شخص غير خسائر أخرى بشرية ومادية ..

وتقدم الطبيعة إلى جانب ذلك على مسرح أخطارها كارثة الفيضانات والسيول ، وقد حدث فيضان فى مصر - أكتوبر ٧٩ - حيث اندفعت سيول شديدة مدمرة فى الصعيد اجتاحت محافظات أسوان وقنا وسوهاج ومدن البحر الأحمر وقد اكتسحت ودمرت فى طريقها عددا من القرى والمنازل والزراعات والبشر .

* * *

وكذلك تلعب الأوبئة دورا خطيرا فى عمليات القتل بالجملة بسرعة وفضاعة وكثرة رهيبه ..

لقد أزيل ثلث سكان بريطانيا من فوق سطح الأرض إلى باطنها حيث دفنوا بسبب وباء « الطاعون » : « الموت الأسود » سنة ١٣٤٩ . ذلك الوباء الذى أصاب العالم بهستريا الخوف القتال ، كما حول المجتمع إلى عصابات نهب وقتل وفساد ..

وانتشر الموت الأسود في الصين ثم امتد منها إلى أوروبا فأدى إلى كوارث
رهيبية ، حيث كان الموتى يحملون بالجملة على عربات ويدفنون في الخفر جماعات
بعد جماعات ..

وجاءت الحرب العظمى بمرض الأنفلونزا « الحمى الأسبنيولية » الذي قتل في
سنة واحدة عشرين مليون نسمة ، كما قتل وباء الكوليرا مئات الآلاف ، بدأ بالهند
سنة ١٨١٧ والصين ١٨١٨ وسيلان ١٨١٩ ثم موريشوس وشرق أفريقيا ١٨٢٠
ومنها إلى الفلبين والصين واليابان سنة ١٨٢٢ . وظهر في إيران وروسيا والبلاد
العربية سنة ١٨٢٣ وأقبلت موجة ثانية من الهند سنة ١٩٢٦ فجابت الصين وروسيا
سنة ١٩٣٠ ثم ألمانيا وإنجلترا سنة ١٩٣٢ ..

وحل هذا الوباء الفظيع بمصر وهونج كونج والفلبين بضرارة قضت على آلاف
مؤلفة من الخلق ، وذلك كله برغم الاكتشاف العظيم الذي توصل إليه العالم
البكتريولوجي الشهير « روبرت كوخ » مخترع المصل الواقى ..

ولقد قتلت الكوليرا ١٥ ألفا من سكان النيجر ، ولم يعد الناس فيها وفي غيرها
من بلاد الفقر والمرض والجوع يطلبون العلاج لأن الموت بالأوبئة فيها أخف وأهون
وأسرع من الموت جوعا ! ؟

وفي سنة ١٩٨١ ظهرت الكوليرا في جاكرتا عاصمة أندونيسيا فقضت على
حياة ٩٤ مواطنا ونقل عدة آلاف إلى المستشفيات بين الحياة والموت ..

وقاتل آخر ضئيل الحجم لا يكاد يرى ولكنه قتل آلافا من البشر بمجرد لسعة
بسيطة ، ذلك هو البعوض الذي يغزو العالم بعمليات قتل جماعية بسلاطات من
الملايا . وقد ذكرت الاحصاءات أن هناك مليون طفل يموتون كل عام في أفريقية
ضحايا طفيل الملايا الذي يتنقل للإنسان عن طريق البعوض ..

ولكن الأدهى من ذلك والأشد خطورة في أيامنا هذه هو أن سلالات جديدة من البعوض لها قدرة على مقاومة العقاقير الطبية قد استطاعت أن تجد لها «وطنا قويا» في أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا ثم شرق ووسط أفريقيا عن طريق الهند ..

وقد أعلن الدكتور نيل براون خبير الملاريا في المعهد القومي للبحوث الطبية بلندن أن هذا المرض يهدد ٢٠٠٠ مليون مواطن يعيشون في أكثر من مائة دولة . وأن هناك الآن أكثر من ٣٥٠ مليون حالة إصابة بطفيل البعوض من السلالات القاتلة ..

كذلك استطاعت عصابة أخرى من عصابات الموت أن تدلف إلى الحياة اليومية للملايين الناس في مشارق الأرض ومغاربها بمقتضى رغبتهم .. متمثلة في التدخين ..

لقد اكتشف العلماء أن الدخان قاتل ، ولذلك بدأت في السنوات الأخيرة حملات لمنع التدخين ، ونقص عدد المدخنين في البلاد المتقدمة ، وبدأ التدخين القاتل يزحف من أوروبا وأمريكا إلى الشعوب المسكينة في العالم الثالث ، واستطاعت سبع شركات دخان عالمية أن تفرض هذا الوباء وفق حملة إعلانية تكلفت في سنة واحدة ألفين وخمسمائة مليون دولار للدعاية للسجائر ..

وقد أثبتت الإحصاءات الرسمية العالمية أن ثلاثين مليون أمريكي يموتون سنويا من تأثير السجائر .. وتقول الإحصاءات إن التدخين أخذ ينخفض في الولايات المتحدة أخيرا بحيث أصبح يوجد بين كل ثلاثة أشخاص شخص واحد فقط يدخن ..

* * *

وما زال عالمنا الحاضر يواجه أزمة مريعة تهدد الملايين بالموت وهي أزمة الجوع التي تفشت في عدة أقطار يعيش فيها ملايين البشر على الكفاف ، بينما توجد أقطار أخرى مكتظة بالخيرات مشحونة بالمبتكرات العصرية التي تزيد من نعيم الحياة ورفاهية الإنسان .. هكلنا مال ميزان الدنيا واندفع الوحش الكاسر المسمى بالجوع يفترس آلاف البشر ..

إن أحدث التقارير الدولية الذي أعدته هيئة الأمم المتحدة من الخبراء العالميين المحايدين ، والذي اشتره بعنوان « الشمال / الجنوب » هو إنذار خطير بما يتهدد العالم من ويلات وأهوال إذا لم يسارع من بيدهم الأمر - من الدول الغنية - باتخاذ اجراءات عاجلة وحاسمة لإنقاذ الدنيا قبل فوات الأوان ..

قال هؤلاء الخبراء العارفون بواطن الأمور إن عالمنا يواجه كارثة اقتصادية مريعة - بكل ماتعنيه الكلمة - تهدد سلام العالم وأمن البشر بصورة لم يسبق لها مثيل منذ كوارث الحرب العالمية الثانية ..

وقد تضمن التقرير مجموعة عملية من الحلول العاجلة لإنقاذ عدد من الدول الفقيرة التي يموت فيها الخلق من الجوع . ومن ذلك تقديم ما يماثل ثمانية آلاف مليون دولار سنويا من السلع الغذائية لمواجهة الجوع المتفشى في عديد من الدول التي افترسها التخلف أو قضى عليها الغزو التتري بالتشرد والفاقة بلا غذاء ولا كساء ولا غطاء ..

* * *

ويتصاعد دور الحروب في عمليات الموت بالجملة ، وقد بلغت الضراوة أقصاها في عصر الحروب العالمية التي تتصارع فيها مجموعات من الدول ويتبادل خلالها ملايين الجنود والمدنيين عمليات القتل الجماعي والتدمير والإبادة ..

لقد فقدت البشرية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التي اشتهرت باسم « الحرب العظمى » : ٤٦,٢٠٩,٩٣٤ (ستة وأربعون مليوناً ومائتان وتسعة آلاف وتسعمائة وأربعة وثلاثون نسمة) ، وفقاً للإحصاءات الرسمية الآتية :

قتلى	٩,٩٩٨,٧٧١
جرحى (حالات شديدة)	٦,٢٩٥,٥١٢
أصيبوا بعاهاث	١٤,٠٠٢,٠٣٩
أسرى ومفقودين	٥,٩٨٣,٦٠٠
ضحايا أمراض ناتجة عن الحرب	١٠,٠٠٠,٠٠٠

أما في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فقد فقدت البشرية مائة وثلاثة وعشرين مليوناً ، على النحو الآتي :

قتلى في ساحات القتال	٣٢,٠٠٠,٠٠٠
عاهاث تحول دون عمل	٣٠,٠٠٠,٠٠٠
قتلى في معسكرات الإبادة	٢٦,٠٠٠,٠٠٠
قتلى الغارات الجوية على المدنيين	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
طفل فقدوا آباءهم أو أسرهم	١٥,٠٠٠,٠٠٠

وبلغت الخسائر المادية في تلك الحرب ٢٦ مليار دولار موزعة كالتالي :

دولار خسارة الاتحاد السوفيتي	١٢٨,٠٠٠,٠٠٠
دولار خسارة ألمانيا	٢٨,٠٠٠,٠٠٠
دولار خسارة فرنسا	٢١,٥٠٠,٠٠٠

دولار خسارة بولاندا	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
دولار خسارة إنجلترا	٦,٨٠٠,٠٠٠

وبمراجعة خسائر الحرب العالمية الثانية يتضح أنها تعادل ثلاثة أمثال خسائر الحرب العالمية الأولى ، وأن ضحايا الحربين يتعدون ١٦٩ مليوناً بين قتيل وعاجز ومشوه ، وأن خسائرها المادية حوالى ٣٦٠ بليون دولار.. وذلك كله قبل اكتشاف واستخدام القنبلة الذرية ، وقبل اختراع القنبلة الهيدروجينية .. والصواريخ العابرة القارات وأشعة ليزر.. وغيرها من أحدث مبتكرات التهلكة والدمار .. مما يعطى صورة قائمة للمستقبل الرهيب الذى ينتظر البشرية إذا ما نجح دعاة الحرب وتجارها فى إشعالها مرة أخرى على مستوى الدنيا ..

وفى أيامنا هذه - وبعد خمس وثلاثين سنة من استخدام القنبلة الذرية فى قصف مدينتى هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين - يقال إن غواصة أمريكية واحدة من طراز « يوسابدن » تحمل ١٦ قذيفة كل واحدة منها مزودة بعشر رعوس نووية .. يمكن أن تقصف عدداً من المدن أكبر من مجموع المدن التى قصفت بالقنابل والمتفجرات فى ألمانيا واليابان طوال سنوات الحرب العالمية الثانية ..

وما غواصة يوسابدن إلا وحدة صغيرة من قوة التدمير التى تمتلئ بها ترسانات الأسلحة النووية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ..

وقد أعلن أخيراً وزير دفاع الولايات المتحدة أنه فى حالة وقوع هجوم سوفيتى بقنبلتين اثنتين على مواقع الصواريخ الأمريكية فإن ٢٢ مليون أمريكى سوف يلقون حتفهم ..

وأذكر أنى فى لقاتى بالرئيس الرومانى نيقولاى شاوشيسكو - يوم أول

أغسطس ١٩٧٨ بمصيف نيبتون بمدينة كونستانزا على شاطئ البحر الأسود -
حدثني هذا الزعيم النابه عن الاستعداد الرهيب للحلفي وارسو والأطلنطي . قال :
إن في أوروبا اليوم : ثمانية ملايين جندي مسلح على أهبة الاستعداد وهـ ٤ ألف
دبابة متطورة ، ١٥ ألف طائرة عسكرية ، وعشرة آلاف شحنة نووية .. وتلك
أكبر قوة تدميرية أعدها الإنسان ليدهرها دنياه ..

وهكذا أصبح الناس في عالم اليوم ، عصر التقدم العلمى والتكنولوجيا
العصرية معرضين للموت بالجملة بأقسى وأفظع ما عرف من أسلحة الدمار
والتهلكة بين ما تحدته الطبيعة من زلازل وبراكين وأربثة وفيضانات وأعاصير
وجفاف وقحط .. وبين ما يعده الإنسان المتحضر من أسلحة الحرب الفتاكة .. ما
ظهر منها وما بطن ..

٥

هؤلاء ماتوا بأيديهم

قاتلُ النفس ولو كانت له
أسخطَ الله ولم يُرضِ البَشَرَ
شوقى

يموت الناس عندما يحين أجلهم موتا طبيعيا أو نتيجة حادث .. أو لسبب من الأسباب العديدة للموت ، ومنها أن يسعى الإنسان لحتفه بظلفه ، أى يقضى على حياته بمحض إرادته ويقتل نفسه قاصدا متعملا ..

وقد حرمت الأديان السماوية قتل النفس ، واعتبرته جريمة شأنها شأن قتل الغير ، فليست النفس ملكا حرا للإنسان يتصرف فيها كيفما يشاء وإنما هى ملك لله بارئها .. ثمة ودیعة يعطيها الله عندما يشاء ويستردها وقتما يشاء ..

« ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »

(٢٩ م النساء ٤)

« ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

(١٩٥ م البقرة ٢)

« ولا تأسوا من روح الله »

(٨٧ ك يوسف ١٢)

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق »

(١٥١ ك الأنعام ٦)

(٣٣ ك الاسراء ١٧)

وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« أكبر الكبائر الإشراف بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقول الزور »

وكما أن للموت الطبيعى صورة المتعددة وأسبابه العديدة ، فإن قتل النفس أو الانتحار له أسلحة مختلفة كما أن دوافعه وأسبابه تتعدد وتتنوع ..

إن الذين يقتلون أنفسهم إنما يؤثرون الموت على الحياة ويضعون بأيديهم خاتمة حياتهم خشية أن تمتد بهم أسباب الضيق والألم أو تقسو عليهم الحن والشدائد ، ومنهم من فقد ماله فى صفقة خاسرة ، أو أصابه الإخفاق فى امتحان أو مباراة ، أو حل به مرض مقعد ، أو ظلم فادح ، أو عصفت به الحب ، أو وقع فى الأسر . فعندئذ يتولاه اليأس ويكره الحياة ويؤثر الموت بيده ، على حد القول المشهور :
بيدى لا بيد عمرو ..

فإذا ما حل البلاء ، وجلّ الخطب ، وران اليأس على النفس ، واستبد الشيطان بالعقل .. ضاعت الحيلة ، وعميت البصيرة ، وغاب المنطق ، وقضى الأمر ..

كثيرون يتمنون الموت فى لحظة حرج ، أو ضرورة قدر ، مثل المجرم حين يقبض عليه متلبسا ، والزوجة التى تضبط فى فراش عشيقها ، والمقامر الذى أضاع برمية واحدة كل ما يملك ، والمريض الذى طال به المرض وعزّ عليه البرء .. والمسئول الذى اكتشفت خيانتة وتبين ارتكابه .

ومن أشد ما يتعرض له الشباب الضيق المبكر واليأس من الحياة بسبب سقوطه فى امتحان فلا تقوى النفس الضعيفة على الصبر ، ولا ينزع الفكر المضطرب عن القنوط ، وقد انتشرت ظاهرة انتحار الشباب الراسين فى العلم والفاشلين فى الحب

فدوت براعم كانت جديرة بالازدهار ، وضاع شباب كانوا معقل الأمل ومعقد الرجاء لو أنهم أنعموا الفكر ، واستعانوا بالصبر ، وقوتهم روحهم على الضعف والاستخذاء والتسليم العاجل ..

وعن تلك الظاهرة التعسة قال أمير الشعراء شوقي :

رُبَّ واهى الجأش فيه قصف مات بالجبن وأودى بالخذر
ليس يدرى أحدٌ منكم بما كان يعطى لو تأنى وانتظر
فلك جار ودنيا لم يدم عندها السعد ولا النحس استمر
قاتل النفس ولو كانت له أسخط الله ولم يرض البشر

* * *

أما انتحار العشاق فصفحة مزدحمة على مر الزمن ومن قصصها المضحك والمبكي . وكثيرا ماخسر أحدهم في الحب فأسرع - بدون وعى وإمعان - يطفى بيده شعلة حياته .. بل ويحدث أن يتفق العاشقان على الموت معا فيضعا نهاية حبهما وحياتها سويا ..

ولذلك يقال إن العشق الذى يزيد عن حد الميل والحبة فيملك العقل ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة .. هو عشق مذموم ملعون يتحاشى عن مثله الحكماء ..

وقد سجلت كتب التراث العربى عددا من قصص صرعى الغرام وضحايا الحب ، ومن أشهرها مارواه صاحب « نهاية الأرب » عن جميل بن معمر العذرى ، قال :

دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لى : يا جميل .. حدثنى عن بعض

أحاديث بنى عذرة فإنه بلغنى أنهم أصحاب أدب وغزل ، فقلت : نعم يا أمير المؤمنين . انتجعوا عن حيثهم ذات مرة فوجدوا النجعة بموضع نازح فقصدوه ، فخرجت أريدهم فبينما أنا أسير غلظت الطريق وجنّ على الليل ، فلاح لى باب فقصدته فورد على راع فى أعلى جبل قد ألبأ غنمه كهفا فسلمت عليه فرد السلام وقال : أحسبك قد ضللت الطريق ؟ قلت : قد كان ذلك ، فأرشدنى وقال : بل انزل حتى تريح ظهرك وتبيت ليلتك ، فإذا أصبحت وفتتك على قصدك . فترلت فرحب بى وأكرمنى وعمد إلى شاة فذبحها وأجج ناراً وجعل يشوى ويلقى بين يدى ومحدثى فى خلال ذلك : ثم قام إلى كساء فقطع منه جانب الخباء ومهد لى جانباً ونزل جانباً خالياً .. فلما كان الليل سمعته يبكى ويشكو إلى شخص ، فأرقت ليلتى فلما أصبحت طلبت الإذن فأبى وقال : الضيافة ثلاث فأقت عنده وسألته عن اسمه ونسبه وحاله ، فانتسب لى فإذا هو من بنى عذرة من أشرفهم فقلت : يا هذا : وما الذى أحلك هذا الموضع ؟ فأخبرنى أنه كان يهوى ابنة عم له وتهاوا ، وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها لقلّة ذات يده ، وأنه زوجها رجلاً من بنى كلاب فخرج بها عن الحى وأسكنها فى موضعه ذاك .. وأنه تنكر ورضى أن يكون راعياً لتأنيه ويراه ، وجعل يشكو إلى صبايته بها وعشقه لها حتى إذا جنّ الليل وجاء وقت مجيئها جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقع لها .. فلما أبطأت عن الوقت المعتاد وغلبه الشوق وثب قائماً وأنشد يقول :

ما بال مية لا تأتى كعادتها	أهاجها طرب أم صدها شغل
لكن قلبي لا يلهيه غيرهم	حتى المات ولا لى غيرهم أمل
لو تعلمين الذى بى من فراقكم	لما اعتلت ولا طابت لى العلال
روحي فداؤك قد هيجت لى شجنا	تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لو أن عادية منى على جبل	لزال وانهد من أركانه الجبل

ثم قال : يا أخا بنى عذرة ، مكانك حتى أعود إليك ، فأبطأ حتى يثست من رجوعه ، ثم أقبل وعلى كتفه شىء محمول ، وقد علا شهيقه ونحيبه فقال :

يا أخا بنى عذرة هذه ابنة عمى أرادت أن تأتيني فأعرضها أسد فافترسها ، ثم وضعها عن كتفه وقال : على رسلك حتى أعود إليك ، ومضى فأبطأ حتى يثست من رجوعه ، ثم أقبل ورأس الأسد على يده ، فألقاها ، وجعل ينكت على أسنان الأسد ويقول :

ألا أيها الليث الخيل بنفسه هلكت وقد جرّت يداك لنا حزنا
وغادرتنى فردا وقد كنت ألفا وصيرت بطن الأرض ثمّ لنا سجنا
أقول لدهر خانتى بفراقه معاذ إلهى أن أكون له خدنا

ثم قال : يا أخا بنى عذرة إنك سترانى بين يديك ميتا ، فإذا مت فاعمد إلى وابنة عمى فأدرجنا فى كفن واحد ، واحفر لنا جدنا واحدا ، وادفنا فيه ، واكتب على قبرى هذين البيتين :

كنا على ظهرها والعيش فى مهل والشمل يجمعنا والدار والوطن
ففرّق الدهر والتصریف ألفتنا وصار يجمعنا فى بطنها الكفن
.. ثم عمدا إلى خناق فطرحة فى عنقه ، فناشدته الله تعالى ألا يفعل فأبى وجعل يحنق نفسه حتى سقط ميتا .

* * *

ومن أشهر المحبين المنتحرين فى التاريخ أنطونيو قائد روما ، وكليوباترة ملكة

مصر..

كان أنطونيو أحد قائدين متنافسين على حكم روما ، وثانيهما أوكتافيو ، وقد

انتهت بهما أدوار الصراع وساحات الحرب إلى مصر ، فانضمت كليوباترة إلى أنطونيو الذى شغفها حبا وبهرته أنسا ولعب بعقله غرامها .. ودارت رحى المعركة وانتصر أوكتافيو ، وفر أنطونيو هاربا شريدا ثم بلغه أن كليوباترة انتحرت حتى لا تؤخذ ملكة مصر أسيرة يطاف بها فى شوارع روما .. فدارت به الدنيا وأظلمت فى وجهه الحياة وقرر أن يقضى بيده على حياته ، على نحو ما وصفه أمير الشعراء شوقي فى « مصرع كليوباترة » :

انتحرت .. بالخبر وبالقسوة القدر
 إن الأمور انتقلت من خطرٍ إلى خطر
 واخجلتا من قولهم انتحرت وما انتحر

ثم صارح صاحبه أوريوس بعزمه على الانتحار :

فالت بنا الدنيا فصرنا بموضعٍ عزيزٍ على الأبطال بالذلِّ مشعر
 أوريوسُ ألم تفهم هو الذل فاشفىنى بضربة سيفٍ أو بطعنة خنجر
 فإنك حرَّ إن فعلت وفائزٌ بسيفي وأثوابي ودرعى ومغفرى

.. ولكن الجندى الوفى أبى أن يطعن سيده التعس فى هذا المشهد الحزين ولم يحسر على إطاعة أمره وقبول عطاياه .. وإنما جاد أوريوس بحياته تضحية ووفاء لقيصر :

لقد جاد لى بالسيف والدرع قيصر وجُدت بأيام الحياة لقيصر

.. وهنا ، تغلب أنطونيو على ضعفه وقوى على تردده ، ونختم حياته بيده :

أوريوس عفوا قد ذهبت ضحيةً وجئى عليك ترددى الممقوت
 فعلمت منى كيف يجبن قيصرٌ وعلمت منك العبدَ كيف يموت

.. وأغمد خنجره فى صدره وسقط ميتا ..

أما كليوباترة ، فقررت هى الأخرى أن تودع الحياة خشية أن يلحقها ذل الأسر
وعار الانكسار .. غير أنها كانت مشغولة بالطريقة التى يمكن بها أن تموت بغير
ألم .. واختارت للدغة الأفعى .. وراحت تسأل عن مدى ماسوف تلقاه من آلام ،
وهل يبقى جمالها أم يذوى ، ويستمر سحر جفونها أو يذبل !؟

وفى الحوار الرائع الذى صممه أمير الشعراء وصف نهاية كليوباترة وهى تحاور

كبير كهانها :

ولكن أبى هل يسان الحلال

فيجيب : نعم لا يحول ولا يندثر

فتسأله : وهل يطفأ اللون؟

فيجيب : لا بل يضىء

كما رفّ بعد القطاف الزهر

فتسأله : وهل يبطل الموت سحر الجفو

ن ويبلى الفتور ويفنى الحور

فيجيب : كعهد العيون بطيف الكرى

إذا الجفن ناء به وانكسر

فتسأله : وعضة الناب؟

فيجيب : .. وخنزأخف

وأهون من وخزات الإبر

.. وبينما هما فى ذلك الحوار جاءوا بجثة حبيبها أنطونيو وهو يعانى سكرات

الموت ويلفظ آخر أنفاسه ، ثم تسمع بمجىء القائد المنتصر أوكتافيو ليتحقق من

موت غريمه ويحاول إغراء كليوباترة بأن تصحبه إلى روما ..

ولكن كليوباترة كانت قد قررة مصيرها واختارت سلاحها ، فمدت يدها إلى
ممكن الموت وأخذت الحية الرقطاء - التي ارتبطت بصورتها في التاريخ - ودفنتها
في صدرها :

هلمى الآن منقلدى هلمى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
حياة الذل تدفع بالمانيا تعالى حية الوادى تعالى
.. وهكذا انتهت حياة العاشقين الشهيرين هربا من الذل وفرارا من الشقاء .

* * *

ومن أحدث صور انتحار الحب أمام الهزيمة فى الحرب صورة الرجل الذى
كان يهز بكلماته عروش الملوك ومقاعد الرؤساء ثم دفع بثلاثة أرباع العالم إلى جحيم
الحرب العالمية الثانية .

إنه : أودلفر هتلر .. مستشار ألمانيا ومبتكر النازية ، الذى أشعل الحرب
وقضى ثلاث سنوات يدفع عجلة النصر الحاطف فى شتى ربوع أوربا حتى دارت
عليه الدائرة ، وتحولت نيران الفتك والدمار فأحاطت بشعبه وبلده وحاصرته
جيوش الحلفاء من كل فجح تحرق وتقتل وتدمر ..

.. فلما صار الخطر قاب قوسين أو أدنى قرر هتلر مصيره ومصير عشيقته ايفا
براون ..

كان هتلر يقود بنفسه معركة برلين من مخبئه تحت دار المستشارية ، وقد تمكن
السوفييت من خداع حلفائهم الغربيين ودخلوا برلين قبلهم لكى يرفعوا العلم الروسى

على برلين ويظفروا بالغنيمة الكبرى : أدولف هتلر وكبار معاونيه .. أحياء أو أموات .

ولما عجزت المقاومة الألمانية عن مواجهة الحشود الروسية التي ضمت ١٣ جيشاً و٣٠ ألف مدفع تلك العاصمة الألمانية وفي أثرها الموت والخراب رفض هتلر نصائح معاونيه بالتوقف عن القتال وإعلان الاستسلام ..

وقال هتلر لرئيس أركان حربه ماريشال كيتل :

« سوف أدافع عن برلين حتى النهاية ..

إما أن أكسب هذه المعركة لعاصمة الرايخ ، أو أسقط كرمز للرايخ .. »

وعندما أصبحت الدبابات الروسية على مسافة ميل واحد من مقر قيادة هتلر ، وظهرت النهاية أخذ يضع خاتمة حياته مع عشيقته إيفا براون ، فأملى وصيته ثم عقد قرانه عليها .. وبعد انتهاء مراسم الزواج جلس هو وعروسه نحو ساعة مع أقرب وأخلص الناس إليه .. جوزيف جوبلز وزير الدعاية وزوجته ماجدا .. وقال هتلر :

« إن الموت بالنسبة لي لايعنى إلا الحرية ..

الحرية من القلق ومن حياة بالغة الصعوبة ..

أما وقد بلغت الأمور هذا الحد فقد انتهى كل شيء ..

وداعاً .. »

ودخل هتلر وزوجته إيفا إلى غرفة أعدت لإعدادا خاصة .. وانطلقت رصاصة ثم رصاصة أخرى من فوهة مسدس .. ودخل الأتباع الخصوصيون فوجدوه مسجى في مقعده ووجهه مغطى بالدماء ، وإلى جانبه إيفا براون جثة هامدة ..

وقد تم لف الجثتين بأغطية ووضعنا في خندق أمام مدخل الخبأ حيث سكب
عليها البترين واشتعلت النيران ..

وهكذا أنهى حياته بيده مفجر الحرب العالمية الثانية التي حصدت أرواح مائة
وثلاثة وعشرين مليوناً من البشر ..

* * *

وقد أثر عن كبار العسكريين أنهم يفضلون الانتحار إذا ما حلت بهم الهزيمة أو
أطبق عليهم الحصار والأسر ، والمثل الأعلى عند الجندي هو : النصر أو
الشهادة ..

والجندي حين يقتل في معمعان الحرب يصبح شهيداً عند ربه فادياً وطنه
وذويه ..

والجندي الحق يفضل الموت على الذل ، ولهذا كان بين الجنود من يضع حول
معصمه أو رقبته حلية نقش عليها :

« مات .. قبل أن يلحقه العار »

مثل هذا القول قاله دكتاتور آخر وبطل من أبطال الحروب ، نابليون
بونابرت :

« ليس الموت شيئاً يؤبه له إنما الحياة مع الهزيمة هي الموت كل ساعة »

وقد بكى خالد بن الوليد وأبكانا معه لأنه لم يميت في ساحة الوغى بطلاً شهيداً
كما كان جديراً بسيف الله المسلول ، فلا يلقى نهايته على فراشه ، كما يموت البعير ..

* * *

وكان من تقاليد البحرية أن قائد السفينة التي تصاب في المعركة وتغرق في البحر ألا يحاول النجاة بنفسه وإنما يلقي حثفه معها غرقاً في الأعماق ..

وقد حدث في بداية الحرب العالمية الثانية أن إحدى الغواصات الألمانية أصابت حاملة الطائرات الانجليزية « كارجيس » فما كان من قبطانها الأدميرال « ماكينج جونس » إلا أن قرر مصيره غرقاً مع سفينته ، حتى إذا بلغت هامته الماء وبدأ يغرق ألقى بقبعته على صفحة الماء تحية للبحر وإجلالاً للموت الذي حمله حياً وضمه ميتاً ..

وفي تحية هذا الحدث قال الملاح التائه الشاعر على محمود طه :

هوى بك الفلك إلا هامة رفعت	لها من المجد إعظام وإكبار
واستقبل البحر صدرا حين لامسه	كادت عليه جبال الموج تنهار
وغاب كل مشيد عند قبعة	ذكرى من الشرف العالى وتذكار
ألقيتها فتلقى الموج معقدها	كما تلقى جبين الفاتح الغار
نزلقا البحر قبرا حين ضمكما	رقت عليه من المرجان أشجار
نام الحبيبان في مثواه واتسدا	جنباً لجنبٍ فلا ذل ولا عار

* * *

رب موت أشرف من حياة

لم يَمُتْ من له أثر
وحياة من السير
إنما الميت من مشى
مَيّت الخير والخير
شوقى

فى الناس أمثلة تدور حياتها كمهايتها ومماها كحياتها

.. ورب حىّ لا حسّ عنده ولا أثر له ولا خير يرجى منه

ورب ميت يحيا بذكراه الطيبة وآثاره الباقية وأعماله الخالدة

روى أن النبى صلوات الله عليه أوصى صحابته :

قال : إياكم ومجالسة الموتى

قالوا : ومن هم ؟

قال : الأغنياء

.. وفى الآية الكريمة :

«والذين يكتنون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم

بعذاب أليم» .

(٣٤م التوبة ٩)

وإن مثل الأغنياء البخلاء كمثل الأحياء الجهلاء .

روى أن حكيمها قال للحاكم :

إننى أعرف عشبا فى الجبال إذا ركّب منه دواء فشرب منه مَيّت ارتد

حيا ..

فعجب الحاكم وأمر بإجراء تجارب ليتبين صحة هذا القول . ولكن التجارب لم تسفر عن شيء ، فاستدعى الحكيم يستوضحه ..

قال الحكيم :

أما الجبال فهي العلوم
أما الموتى فهم الجهال
وأما العشب فكتاب اسمه «كليلة ودمنة»

* * *

إن الحياة عقيدة وجهاد ، وتبعات وواجبات ، فإذا اختلف هذا المعنى أو انعدمت وسائله في إنسان فهو لم يعد حيا يرجى بل غائبا ينسى أو شقيا يعيثر في الأرض فسادا .

والناس صنفان : موتى في حياتهم وآخرون يبطن الأرض أحياء تأبى المواهب فالأحياء بينهم لا يستون ولا الأموات أكفاء

وإذا ما عاش الإنسان على غير ما أرادته سنة الحياة بين سعى ونفع وخير للأهل والوطن والإنسانية فقد تخلف القاعد ونأى الجاهل ، وما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط ..

هل يعتبر حيا ذلك الإنسان البهيم الذى ضل الطريق القويم ومضى في غيه يركب الشر ويأتمر بالشیطان ، فيسرق ويقتل ويظلم ، ويرتكب الموبقات ، ويستهن بالقيم والأخلاقيات التى جاهدت البشرية على مر الزمن لإعلائها والتمكين لها ؟ .

وهل يكون ميتا ذلك الإنسان الذى ترك الدنيا وبقيت آثاره ظاهرة في

نفوس أهله وقد أصلح حاملهم ، وبقيت تعاليمه في أذهان تلاميذه ، واستمرت آثاره محفوظة لدى بنى وطنه .. ألا إن أثره باق وفضله مقيم ؟

حين يموت الإنسان يفقد الناس شخصه ويحتفظون بآثاره ، فليس للموت سلطان عليها لأنها من عناصر الحياة والبقاء ..

في ذكرى الزعيم الخالد سعد زغلول ، قال السياسي الأديب مكرم عبيد في مرثية رائعة :

« اذكروا اليوم سعدا في مجده كما ذكرتموه بالأمس ميتا في لحده » .

« فالمت حتىّ لديك إذا ذكرته والحى ميت لديك إذا نسيته » .

وقال في موضع آخر :

أيها الحى الميت .. أنت عبد

ويأياها الميت الحى .. أنت سعد

وهكذا ، كلما عظم الإنسان في حياته بق شأنه عظيما وأثره خالدا بعد مماته ، وكأتما هو مستمر في الوفاء والعطاء ، فإذا ما مات لنفسه فقد استمر يعيش لغيره ..

ما القول في الأب العاقل الذى لم يشغل حياته بأفكار الثراء أو المتعة أو الشهرة وإنما أثر تربية أولاده فأحسن تعليمهم وأتقن تربيتهم حتى إذا بلغوا مبلغ الشباب أخذوا دورهم في حياة مجتمعهم وبلدهم بالإخلاص والعلم والعمل ؟ . فإذا مات الأب .. أليس غرسه مستمرا وأثره باقيا ؟ .

وما القول في المعلم العارف بمسئوليته الأمين على رسالته ، وقد واصل السعى وبلغ الغاية في تعليم تلاميذ وتوجيه مريديه ، حتى أصبح منهم رجال

العلم والطب والهندسة والتجارة .. هل انتهى المعلم بانتهاء حياته أم بقي اسمه حيا ، وذكره مقرونة بالتقدير العام والاحترام ؟ .

ورجل السياسة الوطنية الذى التزم بالصدق فى القول والإخلاص فى العمل وجعل الجهاد بغيته وتحقيق آمال شعبه غاية غاياته .. هل انتهت رسالته بموته وتوقف جهاده عند لحده .. أم بقيت نظراته سائدة ، وتعاليمه نافذة ، واسمه مشرقا فى ساحات الجهاد والفضل .

وهكذا الطيب الحجة ، والاقتصادى القدوة ، والجندي الباسل ، والأب الفاضل ، والمعلم القدير ، والحاكم النير .. كل منهم يعيش حياته وما بعد مدى حياته ..

وقد لا يعرف الرجل جيلا فى أثناء حياته ، وقد يجهله القريبون منه ، ولكنه يلمع بعد مماته ، وينتشر فضله ، ويذيع خبره ، ويزداد تقدير الناس له ، وتصبح ذكراه حياة ونورا وخيرا .

فى هذا المجال تحدث فلاسفة وعلماء وشعراء : إن الموت لا يجلب الفضل ولا يخفى المكرمات . وقال شوقى أمير الشعراء :

ارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

وقال :

لم يمت من له أثر وحياة من السير

لهذا فإننا نحن المصريين نذكر خوفو الذى بنى الهرم الأكبر دليل عظمة عصره وقوة حكمه ، ومينا الذى وحد الوجهين البحرى والقبلى ، وجعل مصر وطننا واحدا ، وأحمس الذى طرد الهكسوس من مصر ، ورمسيس الثانى

الذى ثبت دعائم الاستقلال وجعل مصر أمة مرهوبة الجانب وافرة الغنى ،
وتحتمس الثالث الذى أطلق عليه المؤرخون العصريون لقب « نابليون الشرق »
نظرا لما كان عليه من كفاءة فى القيادة وعبقرية فى الحرب ، وقد جعل مصر
أعظم امبراطورية فى زمنه .

وهؤلاء .. مضى على عهدهم آلاف السنين ، وإنهم لمن الخالدين .

كما أننا نحن العرب سيقى فى تاريخنا وفى فكر حاضرننا ومستقبلنا تلك
الشخصيات العظيمة الخالدة التى فتحت الأمصار أمام الإسلام ، ومدت
الوطن العربى من المحيط إلى الخليج : سعد وخالد وعمرو وأسامة النجوم
اللوامع فى ميدان الجهاد ، وكذلك «أبوبكر فى أمانته» و«عمر فى عدالته»
و«على فى فقهه» ، ونذكر أقطاب الشعر بدواوينهم التى تحتل مكاتب
العالم : المتنبى وأبو تمام وأبو العلاء وامرؤ القيس والبحترى وأبونواس وباقى
تلك القائمة من الشعراء الأماجد .. ومثلهم عشرات الشخصيات العظيمة فى
كل علم وفن مازالت تعيش بين ظهرانينا ، نأخذ عنهم ونتمثل بهم ونقتبس
من نور علمهم ودرّ كلمهم ..

ونذكر العلماء العرب الأجلاء الذين برزوا فى شتى ميادين العلم ، وأثروا
الحضارة ، وقدموا للدنيا صفحات اجتهاد ، وخبرات عقول ، وثمرات معرفة
فى العلوم والقانون والرياضة والفلسفة ..

كذلك نحن نذكر بالتقدير والفخار رجال مصر الحديثة فى شتى ميادين
العلوم والمعارف والفنون والآداب . ولن تغيب عنا أسماء وأعمال علم دينى
جليل مثل الشيخ محمد عبده ، ورجل اقتصاد مثل طلعت حرب ، وزعيم
وطنى مثل مصطفى كامل ، وشاعر عظيم مثل شوقى ، وسيدة غناء مثل أم

كلثوم ، وجراح نابغة مثل على إبراهيم ، وقانونى قدوة مثل عبدالرازق السنهورى ، وعالم متفوق مثل على مشرفة ، ولاعب كرة فذ مثل حسين حجازى ، وأديب عملاق مثل عباس العقاد ، ومثال مقتدر مثل محمود مختار ..

* * *

إن حياة العاقلة وحياة العاديين من الناس تختلف فى العطاء ومن ثم تختلف فى طول البقاء . إذ تستمر حياة الأكفاء المبرزين حتى بعد موتهم ، وتقصّر حياة المتخلفين حتى وهم يعيشون طويلا ، وإذن فليست الحياة الحقّة بطول العمر وإنما بما يؤدى فيها من أعمال ..

وقد ظهرت أفكار فى مراحل عديدة من التاريخ ترى أن تكون الحياة للأكفاء ، ومن ذلك « فلسفة القوة » التى تذهب إلى عدم جدوى حياة الضعفاء وأن المرضى بأمراض معقدة لاحق لهم فى الحياة ، وعلى سبيل المثال ينادون بتعقيم المرضى الميثوس من شفائهم والمشوهين ، وأن تتسع أحكام الإعدام لتشمل المصابين بالأمراض المستعصية ، والمتخلفين عقليا ، كما يعامل المجرمون وأعداء الإنسانية ..

غير أن الصحيح الذى لا خلاف عليه - دينا وإنسانيا - هو أن البشر لا يملكون حق الحياة أو الموت ، فتلك حكمة الخالق الأعظم ، هو خالق الجميع من أصحاء ومرضى وصالحين وطالحين .

وقد يقول قائل : إنهم يقتلون الخليل إذا أصابها جرح نافذ أو مرض عضال . رحمة بها حتى لا يطول عذابها .. فلماذا لا يطلق الرجل رصاصة

واحدة على زوجته العزيزة حتى يريحها من عذاب المرض والذلة ! ..
قال القضاء : إنها عملية قتل ، مهما اتسمت بالرحمة .
وأحدث ما جرى في هذا المضمار ذلك الاستفتاء العام الذى أعلن في
ألمانيا ، وكان موضوعه :

هل يجوز للطبيب أن يساعد مريضه الميثوس منه في التخلص من الحياة ؟
وكانت الإجابة الصادرة عن الهيئات الطبية :

لا

إن الطبيب يعالج مرضاه لقتل المرض وليس لقتل المريض ! .

ومن الحوادث الشهيرة التى تناقلتها متعدد المجالس والمجتمعات فى شتى
أنحاء العالم تلك الحادثة التى تعرضت لها فتاة أمريكية جميلة ذكية تدعى
«كارين آن كونيان» أصيبت إصابة مفاجئة فى المخ فألفتته تماما ولم يعد
يرجى لها علاج .. فرفع والدتها قضية أمام المحكمة الدستورية فى الولايات
المتحدة ضد الأطباء الذين يعالجونها ، لإخراجها من المستشفى ورفع الأجهزة
التكنولوجية التى أبقتها على قيد الحياة طوال خمس سنوات كاملة ، وطلب أن
تترك ابنته لتموت موتة طبيعية .. وكسب الأب القضية وأخذ ابنته إلى المنزل إلا
أنها استمرت على قيد الحياة وظل قلبها ينبض دون أية مساعدة من الأجهزة
الإلكترونية ! ؟

وبدأت مناقشات واسعة المدى واحتدمت الآراء حول حق الإنسان فى
الموت لم تصل إلى نتيجة حاسمة لأن الدستور الأمريكى لم يتضمن - ضمن الحقوق
الممنوحة للمواطن الأمريكى - «حق الموت» !

كذلك اشتهرت قصة الطبيبة الهولندية «دكتور جيرتر ويدا بوفن» التي وقفت حائرة متواصلة الحزن وهي ترى أمها العجوز المشلولة وهي تعاني آلاما مبرحة .. والموت على مقربة منها ولكنه لا يتقدم بل يتركها فريسة أوجاع وآلام لا نهاية لها .. كما يفعل القط بالفأر قبل افتراسه !

إن الأم المسجاة لم تعد تطيق الحياة وهي تحاول الانتحار ولكنها عاجزة ، وهي تسترحم ابنها لكي توقف العلاج وتتركها تموت .. وأخيرا اضطرت الطبيبة إلى إعطاء أمها جرعة مهلكة أثناء نوبة إغمائها .. وماتت الأم ، ورفض مدير المستشفى أن يوقع شهادة وفاتها .. ومن ثم واجهت الطبيبة القاتلة القضاء وحكم عليها بالسجن جزاء ممارسة جريمة «القتل بدافع الرحمة» !

وقد اعترف الجراح العالمى بيورن آيسن أنه كانه يقوم من تلقاء نفسه بإغلاق جهاز التنفس أو إعطاء جرعات زائدة من الموروفين للمرضى الميثوس من علاجهم لأنه كان مقتنعا تماما بأن استمرار علاجهم لن يؤدي إلا إلى إطالة عذابهم ..

إن أحدث صحية دوت فى هذا المجال انطلقت من مصر وتردد صداها فى شتى أنحاء العالم .

لقد دعت «جمعية الطب والقانون» فى مصر مجموعة من الأطباء والمفكرين ورجال الدين والقانون إلى مؤتمر عالمى بمقر جامعة الإسكندرية فى ختام سنة ١٩٧٥ وقد طرحت فيه للمناقشة قضية «القتل لإشفاقا» أو «موت الراحة» ..

هل من حق الطبيب أن يعجل بموت مريضه ؟
.. إنفاذا له من عذاب لا أمل على الاطلاق فى وضع نهاية له ؟

أى لا أمل فى شفائه ..

وسواء كان هذا الإنقاذ مطلوباً من المريض المتعذب التعس أو من أهله
وذوى قرياه ؟

لقد تكلم رجال الدين ، من القرآن الكريم :

«إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير»

(٤٣ ك ق ٥٠)

« هو الذى يحيي ويميت »

(٦٨ ك غافر ٤٠)

« لا إله إلا هو يحيي ويميت »

(١٥٨ ك الأعراف ٧)

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً »

(١٤٥ م آل عمران ٣)

وقال الأطباء العالميون الثقات :

إن التعجيل بالوفاة - مهما كانت دواعيه عند المريض أو الطبيب - يعتبر
جريمة قتل عمد ومع سبق الاصرار .

وليس لآلام المريض أو شفقة الطبيب أو دموع الأهل أن تبرر هذا
التصرف أو تضع له وصفاً غير أنه « جريمة قتل » .

هكذا قال مائة طبيب ومفكر ورجل دين وأستاذ قانون. الجميع قالوا : لا .

ولم يجد « الموت رحمة » من يناصره فيوافق على قتل مريض متعذب

ميثوس من شفائه ..

ومن أحدث وأشهر قضايا الصراع بين الحياة والموت ما حدث للجنزral « الكوديلو فرانشيسكو فرانكو » رئيس دولة أسبانيا وحاكمها المطلق طوال أربعين سنة .

كان الجنرال فرانكو قد بلغ سن الثالثة والثمانين من عمره حين دهمه مرض الموت وأخذت إشاعة موته تنطلق في كل يوم بينما كان أهله ومواطنوه سيكون من أجله ، ويحزنون لما يحل به من عذاب ، ويتعجلون موته رحمة به .. .
وقد وقف آلاف الناس حيارى بين الآلام الفظيعة التي يعانها ،
والعمليات الجراحية المتوالية التي جادت بها مبتكرات العلاج العصرى ..
وراحوا يصرخون في وجوه الجراحين والأطباء المعالجين مطالبين بوقف المشارط والإبر التي مزقت أحشاء الدكتاتور العظيم وبترت ثلثي جهازه الهضمى !
قالوا وهم يدركون عذاب المرض : دعوه يموت .. لا نريد أياما أخرى من العذاب لرجل فارق الحياة فعلا ..

ولقد تتابعت الساعات والأيام والطب يقدم المعجزات على حساب الآلام التي تحمل بالجنرال فرانكو ، وهو راقد لا يدرى شيئا بينما حوله أثنان وعشرون طبيا وجراحا عالميا يتابعون أجهزة رسم القلب ورسم المخ ، وهما العنصران الوحيدان اللذان ظلا يقاومان بعد أن كفت جميع الأعضاء ، وتوقفت عن العمل نهائيا .. وبعد أن تعرض المريض المحتضر لعدة أزمات قلبية ونزيف معوى حاد ..

وتحركت الجماهير ليلا حاملة المشاعل ، ودارت حول مقر المريض الكبير تصرخ وتنادى :

الرحمة .. الرحمة .. دعوه يموت

وبقي الجنرال فرانكوا ميتا إلا عقله زهاء شهر حتى مدّ الموت يده وأخذ ما بقي منه .. وحمد القلب الذي نبض بالسلطة والشهرة ، وتوقف العقل الذي حكم أسبانيا حكما مطلقا على مدى أربعين سنة .. وفاضت روحه فانتهت حياته وانتهى نظام حكمه .

* * *

وهناك جريمة قتل أخرى ارتكبت لسبب غير رحمة المريض وإنما للخلاص من إنسان «موته خير من حياته» ! .

بمعنى أنه قد يبرق في خاطر أحدهم :

لماذا يعيش هذا الرجل الذي عاش أرذل العمر بلا فائدة ترجى منه ؟
ولماذا يبقى الجرم السفاح حيا وهو يواصل إيذاء غيره وتدنيس مجتمعه ؟ ..
مثل هذا الخاطر سيطر على ذهن أحد الشبان وهو يرى مراية عجوز تكثر الذهب والفضة .. وتقدم المال للمعوزين والمأزومين بفوائد ترهقهم وتجعل حياتهم جحيا .. لماذا تعيش هذه الحشرة مصاصة الدماء .. ولماذا تبقى على قيد الحياة إلا للشر وللشقاء ، بينما أموالها الغزيرة حبيسة خزانتها .. وهي تكفي لعلاج مئات المرضى وإطعام مئات الجوعى وإنقاذ مئات الأسر التي تعيش في حومة البؤس والحرمان ؟ .

في قصة «الجريمة والعقاب» - إحدى روائع الروائي الروسي الشهير دوستويفسكى - نجد طالبا فقيرا هو «راسكو لنيكوف» يذهب لرهن ساعة قديمة مصنوعة من الفضة ورثها عن أبيه ، وهو يريد شراء الدواء لأمه . وكانت المراية العجوز الشمطاء العنيدة : ايفانوفا : تشتد في معاملة زبائنها

البؤساء وتعطى ربيع قيمة الشيء الرهين وتستوفى فائدة تبلغ سبعة من المائة في الشهر الواحد . ولا يمكن أن تنازل عن تأخير يوم واحد ولا عن « روبل » واحد .. رغم ما تضمه خزائنها من أموال طائلة ، ومجوهرات ثمينة ، وسبائك من ذهب .. وقد اشتهرت ايفانوفا بأنها عنيدة وقاسية وجشعة مهما كانت حالة البؤس التي تنخر في عظام المساكين الذين يلجأون إليها ..

رأى راسكو بنظرة خاطفة مالدى هذه العجوز الحبيثة من أموال ومجوهرات .. وتعجب أن المجتمع يضم عشرات الأسر الفقيرة ومئات التلاميذ المحرومين والمشرفين على الضياع .. والمرضى .. وضحايا الجوع .. ثم نظر راسكو إلى حالة أسرته المسكينة : عجزه هو عن الاستمرار في التعليم .. وعدم قدرته على الزواج ممن يجب .. إنه لا يستطيع أن يحضر الطبيب ليعالج أمه المريضة .. إن أخته الشابة الجميلة لا تستطيع الزواج من الشاب الذي تحبه ومحبا .. إن رجلا غنيا عجوزا سيئ الخلق يطمع في الزواج من أخته فيقبض عنق سعادتها ويوردها مورد الحسرة والضياع ..

وأخذ فكره يسرح فيما يمكن إقامته من مشروعات تستخدم عددا كبيرا من الشباب ، وإنقاذ مئات الناس من الفقر والمرض والذل .. إن أموال المرابية العجوز تستطيع أن تنقذ مئات الناس المساكين ؟

وانخذ راسكو قراره :

قتل المرابية العجوز وتكريس أموالها لخدمة الإنسانية المعذبة .

وسأل راسكو نفسه :

هل جريمة تافهة كهذه لا تساوي آلاف الحسنات التي ستنتجم عنها ؟ ..

ولخص فكرته كالآتي :

«موت امرأة عجوز ظالمة لا تستحق الحياة .. لإنقاذ مئات الناس لكي يعودوا إلى الحياة» .

وخيل إليه أنه يسمع أصواتا ترن في أذنيه :

إن المراية العجوز الشريرة غير جذيرة بالحياة ! .

ثم سمع خاطرا آخر يومض في رأسه :

مالك أنت وهذه المراية ، مادام قد بقيت في عمرها بقية ، فمن حقها أن

تعيش حتى يحين أجلها ..

ولكن راسكو أبعد هذا الخاطر على الفور واتخذ قراره بتنفيذ «جريمته

الصغيرة» .. وأخفى السكين في ثوبه المتهالك ومضى إلى مسكنها الحقير ..

فقتلها ، وملاً جيوبه بأموالها ، ثم بارح مسرح الجريمة دون أن يشعر به أحد ..

وذهب إلى جهة خالية فدفن الأموال والجواهر ، وتوجه إلى الشاطئ وألقى

سكينه مع التيار ، وتخلص من كل معالم الجريمة ..

وفي اليوم التالي قرأ في الصحف خبر مقتل المراية العجوز والقبض على

أحد العمال بتهمة قتلها !؟

ووجد راسكو أنه أصبح حرّاً لا تشوبه شائبة أو شبهة ، وأنه بعيد تماماً عن

هذه الجريمة .

واستطاع راسكو أن يأكل لأول مرة أكلة دسمة ، وأن يشتري ملابس

جديدة ، وأن يأتي لأمه بالطبيب والدواء ، وأن يفض أزيمة أخته الجميلة التي

كان يطعم فيها رجل عجوز يحاول أن يقتنصها من خطيبها الشاب الذي تحبه ! .

ولكن ما توقعه راسكو تبخر فجأة حين جاءت أخته الشابة المعذبة
«دونيا» ، وقد أثار دهشتها ماجدًا على محيط أسرتها واشتمت رائحة جديدة
عليها ..

إن راسكو يؤكد لها أنها سوف تتزوج بمن تحب ، وأنه سيجعل لزواجها
احتفالاً باهراً ..

وبدلاً من أن تسعد دونيا بهذا الخبر المدهش ، فإنها وجمت .. ثم أخذت
تستمع بأسى للأخبار المفاجئة :

راسكو يرتدى ثياباً جديدة ..

أمها تجد الطيب بين يديها والدواء إلى جانب فراشها ..

أكل وفير في البيت :

راسكو يؤكد لها أنها لن تتزوج العجوز الطامع في جهاها وإنما ستتزوج
الشاب الذي يبادلها الحب ، ويعمل لها فرحاً باهراً .. وليألى ملاحاً؟ ..

وأخذت دونيا تحاور أخيها راسكو وتستدرجه حتى باح لها بسرّه ،
وصارحها بجريمته ، وأكد لها أن العناية لاحظته فلم ينكشف أمره ، فقد قتل
مراية عجوزاً سيئة الخلق والخلقة .. وأنها كانت تستحق القتل ..

.. ووقعت الأخت المسكينة مغشياً عليها ..

وعندما أفاقت واستعادت وعيها وجدت أخاها يعطيها المال ويعدها
بالسعادة .. ولكنه فوجئ بما لم يكن في حسباته ..

إن أخته الشابه المسكينة الجميلة الذابله الفقيرة الحزينة المحتاجة إلى من

يعينها لكي تتزوج حبيبها وترحم من عجوز ثرى يريد أن يملكها .. هذه الأخت البائسة قالت لأخيها :

لقد أخطأت ياراسكو..

● إنك ارتكبت جريمة ..

● أنت قاتل.

وبكت ... ثم رفعت عينيها الحزبتين .. واستطاعت أن تنصحه بأن يسلم نفسه للشرطة ، وأن يعترف بأنه القاتل ، وأن ينقذ رقبة رجل مظلوم برىء لم يقتل ..

«إنك ياراسكو تمحو نصف جريمتك بتقبلك العقاب» .

قال لها وهو يحاورها :

جريمة .. أية جريمة .. هل قتل حشرة ضارة يعتبر جريمة ؟

ألا يستحق قتلها غفران أربعين خطيئة ..

إنها عجوز خرقاء .. مصاصة دماء .

قالت دونيا بهدوء وإمعان :

أخى راسكو.. أنت قتلت نفسا .. أزهدت روحا .. ثم إنك ستودع رقبة

رجل مظلوم حبل المشقة ..

قال راسكو :

هل قتل الحشرة السامة يعتبر جريمة ؟ ..

إذن ، ما قولك فى عصابات القتل وجاعات التدمير .. ، ما قولك فى

لقاء القنابل على الجواهر الصارخة في طلب الحرية ؟ ..

ما رأيك في عمليات القتل بالجملة .. إن نابليون بونابرت قضى على تولوز بالدمار ، وقتل نصف مليون إنسان في موسكو .. ومع ذلك أقيمت له التماثيل في عدد من البلدان ، وانتشرت صورته وكتبه بجميع اللغات ، وأفلام السينما والقصص والنوادير .. وأقواله المشهورة .. إن فرنسا تحتفل بذكراه كل سنة ، ويطوف الناس بضرجه ، ويقول الفرنسيون : ليت يعود ! .

قالت دونيا :

إنك قتلت نفسا ، إنك قضيت بمحض تفكيرك وإرادتك على حياة إنسان .. وهذه ليست وظيفتك وإنما هي عمل الله .. فهل أصبحت أنت الإله ؟

قال راسكو :

أى وزن أو قيمة لحياة هذه العجوز المشلولة الشريرة التي امتصت دماء الكثيرين من المساكين . إن قتلها خير من حياتها .. إن قتلها يجعلني أتم دراستي ، وأبدي نجاحتي .. وأخدم العلم والمجتمع .. إن قتلها يجعلني قادراً على إحضار الطبيب لأمي ، وشراء ما يلزمها من دواء وكساء وغطاء ..

إن قتلها يجعلك تتزوجين الشاب الذى تحبينه ، والقادر على إسعادك وخلصك من ذلك المسخ الشرير الذى يريد أن يقطف الزهرة . إن قتلها يجعلني أفعل الخير الكثير لإعانة عشرات التلاميذ العاجزين عن شراء الكتب وعشرات المرضى واليتامى والمحرومين ..

.. وصمتت دونيا عن الكلام .. ولكن وجهها الشاحب ودموعها الحزينة
عبرت عن خاطرها .

وفهم راسكو رأيها وأدرك صحة منطقتها .. وأفانق على الحقيقة المفجعة : إنه
قاتل ..

لقد ارتكب جريمة قتل ولا بد من العقاب !

صحيح أن موت المرابية الشريرة أفضل من حياتها المؤذية .. ولكن الحياة
والموت من صنع الله ، وليس للإنسان أن يتدخل في شئون الله ، ولا أن يفعل
ما يتعارض وحكمته العليا ..

وذهب راسكو إلى الشرطة ، فسلم نفسه واعترف بجرمه .. وليكن الله في
عون أخته وأمه وسائر أوليائه الصالحين .

* * *

سئل الكاتب الفرنسى الشهير «فيكتور هوجو» عن شعوره عندما تقدمت
به السن واقتربت النهاية .. قال : لست خائفا .. وليحضر الموت على الرحب
والسعة ..

ولقد آثر المصور الهولندى العبقرى «فان جوخ» الموت على المرض ،
فأطلق على صدره رصاصة من مسدسه واختصر آلامه في ثانية واحدة ..

وكره الحياة الكاتب الروسى الشهير «تولستوى» وكفر بالدنيا بسبب رعونة
زوجته المؤذية التى لم تشفق على مواهبه الأدبية ، ولم تحفل بجأه وشهرته ،
وظلت تنكد عليه ، وتجعل حياته جحيمًا حتى فضل الموت فرارا منها على الحياة
معها ..

غير أن هذه النماذج تعتبر حالات فردية ، خلقتها ظروف قاسية ، ومواقف مفرجة ، ومشاعر مضطربة .

إن الظاهرة الغربية - والتي تتغلب على ظاهرات أخرى كثيرة في الحياة - هي أنه مهما يلاقى الناس من متاعب وآلام فإنهم يحبون الحياة ، ولا يرغبون في فراقها ، مهما طال بهم العمر ، أو وهنت الصحة ، أو كثرت الأوجاع والآلام ..

كل الناس يحبون الحياة .. حتى الفقراء والمرضى والمساجين .

ولقد أعطى الشاعر لافونتين أكبر مثل على تعلق الناس بالحياة مهما أصابهم من سوء الطالع أو أشد الحزن ، فجاد ذهنه بصورة خطاب عمجوز منهوك القوى تواتت عليه الأعباء فحنت ظهره وسلبته الصحة والبهجة حتى صار تمثالا للتعاسة والشقاء .. وكان بين الحين والحين يتقل حمله وتشد عليه علته فيتمنى الموت ..

نعم ، كان يكلم نفسه ويطلب الموت وكأنما كان يبحث عنه ويستدعيه لإيقاده ويناديه بصوت عال .. حتى إذا استجاب الموت لدعوته ولبى نداءه وصار أمامه وجهها لوجه .. فزع الخطاب المسكين ، وتراجع في خطوه ، ورجع في كلمته .. لما عرف أنه الموت !

قال الخطاب لشبح الموت : أرجوك .. ساعدنى .. أنزل حملى ..

وساعده شبح الموت ، وأنزل الحمل عن كاهله ..

وهنا أحسّ الخطاب بالراحة ، فنظر إلى الموت خائفا وصرخ فيه :

اغرب عن وجهى .. لا أريدك .. أريد أن أعيش !

وهكذا أعلن لافونتين أن شعار بنى الإنسان هو :
أحب إلينا أن نتعذب .. ونتعذب .. ولا نموت .
وفى مثل هذا الإدراك قال أحد المحكوم عليهم بالإعدام :

لو سنحت لى فرصة النجاة من جبل المشقة .. مقابل أن أعيش على قمة
صخرة نائية تحتها هوة سحيقة أو بحر متلاطم الأمواج .. واستمر هكذا ! .. فأنى
أفضل أن أعيش وحيدا معزولا محروما .. وفى أقصى الأحوال .. ولا أموت .

* * *

إذن ، هذه هى الحياة ، ولاشئ غير الحياة ، بأية صورة وفى ظل أقصى
الظروف .. تلك هى الحقيقة الكبرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحياة ليست لعبا ولها ، كما أنها ليست ملكا
خاصا يحق للإنسان أن يتصرف فيه . كأن يحتفظ بها على هواه ورهن
مشيئته ، أو أن يقضى عليها بمحض إرادته متى شاء .. ولا يقل حقاقة بعد هذا
التفكير أن تقاس حياة الناس بمقياس الزمن .. فهما طالت ومهما كانت كلها
شقاء ، فإن الشهور أو الأيام الباقية من عمر الإنسان قد تتحول إلى فترة راحة
ومرحلة هناء وسعادة وتفوق ..

.. ومن يدري ؟ فقد تكون الخاتمة على غير ما جاءت البداية .. وقد
يتفوق آخر العمر على أوله .. فتنهى سنوات العذاب والشقاء وتجيء أيام
حلوة .. مثلما يجيء الضياء بعد ليلة ظلماء ..

أنت لا تدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ..

٧

للموت دعابات .. وطرائف !

جدة الزمان وأنت تلعب
والعمر في لا شيء يذهب
كم قد تقول غدا أتوب
غداً غداً والموت أقرب
ابن المعتز

لفت نظري واستقر في ذاكرتي منذ عدة سنوات خبر نشرته الصحف تحت
عنوان :

« مات البائع والمشتري » .

ومؤدى الخبر أن أحد الوجهاء اضطر تحت ضغط الحاجة إلى بيع قصره
المنيف فى شارع الهرم ، فاشتراه أحد الأثرياء الجدد .

كان البائع مترددا كل التردد ، حزينا غاية الحزن وهو يودع مرتع مجده
ومظهر جاهه .. بينما كان المشتري مقبلا متعجلا إتمام تلك الصفقة « الصقع »
التي أهدتها إليه المقادير لكي يصبح وجيها موفور الزهو والانبساط .

وتم توقيع عقد البيع بين وخزات الألم من جانب ، وهزات الفرح من
الجانب الآخر .. وبعد ساعات قليلة وقع حادث غريب ومصادفة مفاجئة ..
وظهر النبأ فى صحف الصباح :

مات البائع والمشتري ..

مات الضاحك والباكى

كذلك نشرت الصحف يوم أول يوليو ١٩٧٧ خبرا مثيرا تحت عنوان :

« تحاول الانتحار من الدور الخامس »

تسقط فوق عامل في طريقه إلى عمله ..
فيموت العامل وتنجو الفتاة المتحررة ! ؟ »

شهد أهالى العجوزة حادثا غريبا أمس عندما أُلقت فتاة بنفسها من فوق إحدى العمارات العالية محاولة الانتحار ، فسقطت فوق عامل تصادف سيره أسفل العمارة ، ولقى العامل مصرعه على الفور .. بينما لم تصب الفتاة بأى سوء ، وقد وجهت لها النيابة تهمة قتل العامل بطريق الخطأ !

* * *

روى الكاتب الخصب توفيق الحكيم أن أحد كبار موظفي الدولة كان يتطلع إلى درجة وكيل وزارة ، وكان يفسد مطعمه ويورق مضجعه أحد زملائه الذى كان أحق منه بالدرجة بحكم أقدميته وكفاءته .. غير أن الرجل الطامع كان واسع الحيلة كثير الدهاء وقد تفتق ذهنه عن «مقلب» محكم يوقع بين الوزير ومناقسه المستحق للدرجة ، وبذلك يغضب الوزير على ذلك الرجل فيتخطاه ويقصيه ويصبح ذلك الداهية المتآمر هو المرشح الوحيد الفائز بالوكالة المرتجاة .

وتم «المقلب» بإحكام و«شربه» الوزير فاستبعد الوزير الرجل الكفء المستحق وقام بترشيح صانع المقلب وفنان النفاق .. وصدر القرار بترقيته ، وبلغه الخبر وهو يهم بمغادرة مكتبه إلى بيته كعادته كل يوم .. ولكنه فى لحظة زهوه وعجبه أراد أن يغير طريقه لكى يمر بشارع شريف حتى يراه معارفه من رواد «بار الانجلو» فيزف إليهم البشرى ، ويتقبل منهم التهانى .

ومضى سعادة الوكيل يذرع الطريق مترفقا من تبه وخيلاء ، وبحرك عصاه كأنما يدق الأرض ثم يرفعها كأنما يطاول السماء .. وعلى مقربة من «بار

الانجلو» لفت نظره طفل يتبول على الحائط فأخذته العزة ولم يعجبه المنظر الذى لا يتفق مع جلال المناسبة ، فرفع عصاه فى وجه الطفل ونهره .. وإذا قدمه تنزلق فيما أحدثه الطفل من بلل ، وسقط الهيكل الشامخ على أم رأسه .. ساكنا بلا حسّ ولا حركة .. ومات على قطرات من البول ! ؟

ومن القصص المشهورة التى كان الموت فيها يلهو ويتسلى قصة السيدة وكلبها :

كانت إحدى السيدات المتفرنجات كلفة بحب كلبها .. لا يفارقها فى بقطة أو نوم ، فكان يرى فى بيتها ومعها فى كل تحركاتها وساعات نزهتها ، حتى كان يوم اصطحبته معها إلى شاطئ البحر حتى لا يفوته الاستمتاع بحمام الشمس ورياضة السباحة ..

نزل الكلب وراء سيدته إلى عرض البحر دون أن تشبه إليه ، وكانت السيدة سباحة ماهرة ، فراح الكلب بلاحقها حتى حصره الموج ودهمه الخطر .

ولما عادت السيدة إلى الشاطئ ولم تجد كلبها ، فقد راحت تنلفت حولها لطفة عليه ونخشت أن يكون قد نزل إلى الماء خلفها .. ثم لمحت بعيدا كرشة فى مهب الأمواج .. وبغير تكفير فى حالتها المجهدة بعد سباحة شاقة فقد ألقت بنفسها فى البحر وراحت تبذل جهدا عنيفا فى مصارعة الأمواج .. فكانت تراه لحظة ويختفى عن نظرها لحظات .. وما تكاد تلتقطه حتى يضربه الموج فيغرق واستمرت على ذلك ساعة حتى أضناها الجهد وخارت قواها وابتلعها اليم ..

وقد لفت نظر بعض النظارة على الشاطئ جسم صغير ضعيف تتقاذفه الأمواج ، فألقى أحدهم بنفسه واستطاع أن ينقذه ويعود به حيا .

لقد غرقت السيدة السباحة القديرة .. ونجا الكلب !

* * *

وعلى شاشة السينما شاهدت الجماهير فيلما عن قصة «الموت فى اجازة» ..
إذ توقف الموت فجأة عن نشاطه المعهود ؟ .

كان الثرى العجوز يعيش فى قصره المنيّف وضياعه الواسعة لا يعنيه فى
الحياة شىء ولا يؤنسه فى وحدته غير حفيده الصغير الذى مات والداه فى
حادث سيارة .

وفى يوم عبوس كان الطفل يلهو فوق شجرة تفاح ضخمة بمدخل القصر
فسقط بين فروعها وأصيب بجراح شديدة ما لبثت أن تلوثت وأخفق الأطباء
فى علاجها ، وارتفعت حرارة الطفل الجريح وساءت حالته وتضاعفت آلامه
ولم يعد يحول بينه وبين الموت حائل .

وأصبح الشيخ باكيا وبات حسيرا وانقطع إلى الصلاة والدعاء أن يمنح الله
الموت من دخول القصر ، واتجه ببصره إلى شجرة التفاح الضخمة وتمنى على
الله أن يضع فيها سرة فتقتنص الموت عند دخوله القصر ، وتجبسه بين
أغصانها ، أى تحدد إقامته ولا تفجعه فى حفيده الوحيد الحبيب ، مشرق أملة
ومعقد رجائه .

وكانت دعوة مستجابة !

دخل الموت من باب القصر فتلقته شجرة التفاح ، وغاب بين غصونها ولم
يستطع حراكا ، وفوجئت المدينة بظاهرة عجيبة .. لقد توقف الموت .. لم يعد
أحد يموت .. الفتاة التى سقطت من الدور العاشر لم تمت .. الرجل الذى

أشعل النار في نفسه أصابته حروق ثم انطفأت النار .. ولم يمِت .. العجوز التي كان القسيس يودعها ويبارك نهايتها صحت .. القتيل الذي أغمد القاتل خنجره في ظهره بقى سليما معافى .. لم يعد أحد يموت في المدينة كلها إلا في جهة واحدة .. في شجرة التفاح بقصر الرثى العجوز كانت الطيور التي تحط على الشجرة تسقط ميتة . كذلك الفئران التي تتخذ جحورها في هذه الشجرة ؟

ولكن .. ما الذي حدث في داخل القصر؟

وماذا جرى للفتى الجريح ؟

الفتى الجريح لم يمِت ، والأطباء حيارى ، والجد سعيد لأن دعاءه استجاب له الله .. ولكن : الطفل يتألم ويصرخ ويتوجع .. لا يعرف الراحة ولا يذوق طعم النوم ..

وعزَّ على الجد ما يجرى للحفيد ، وانتبه إلى الحقيقة وهي أن الموت راحة للطفل المسكين المذبذب .. فضى إلى محراب صلاته ودعا الله أن يطلق سراح الموت من شجرة التفاح .. واستجاب الله للدعاء ، وانتهت أجازة الموت .. الذى سرعان ما أطبق على الطفل فأراحه من العذاب .. وأسلمه للراحة العظمى .

* *

وقصة أخرى تمثل أعجب ما يحدث للإنسان حين ينجو من برائن الخطر ثم يلقى الموت في هدأة الراحة والطمأنينة .. فهنا الشاب الطيار الذى عاش زهرة عمره يملح في آفاق المعارك والموت يتهدده في معركة بعد معركة فيقتل من الموت .. وتنتقل نحوه الرشاشات فلا تصبه ، ثم تصاب طائرته فيضطر

للقفز بالمظلة وينجو.. حتى إذا انتهت الحرب وزال الخطر عاش الطيار حياة آمنة فأحب وخطب وتزوج.. وفي ليلة فرحه كانت الزغاريد تملو مع نغمات الموسيقى.. وطلقات الرصاص تدوى تعبيراً عن الفرح وإعلان السعادة.. وفجأة استقرت رصاصة في صدر العريس ليختم حياته ختاماً غير متوقع لمثله.. فهو لم يمت برصاص العدو في معمعان الحرب ولم تسقط به الطائرة.. وإنما غدرت به رصاصة طائشة أطلقت تعبيراً عن الفرح..

وهكذا كان نتيجة اللعب بالنار..

وهكذا قد يجتنى الموت في حومة القتال ، ويظهر في ساحة الأمان والأمان ! .

* * *

لم تفت أسرار الموت ودعاياته عميد المسرح المصرى يوسف وهبى الذى عقد له الفصول الطريفة فى عدد من مسرحياته ، فى «خفايا القاهرة» خرج الميت من قبره لأنه كان فى إغماء وظنوه فارق الحياة ودفنوه قبل انقضاء أجله .. وإذا هو يصحو وينفض تراب القبر وينهض إلى الطريق بوسائل تخفيه عن الأنظار وقد لف جسده بملاءة بيضاء .. وكان قد اشتد حنينه إلى بيته المنيف وزوجته المحبوبة وأبنائه البررة وأصدقائه الأوفياء .

فماذا رأى بعد أن واروه التراب ؟

وما الذى كشفه له الموت من خفايا القاهرة !

رأى زوجته فى مخدعه المقدس بين أحضان أوفى أصدقائه ..

ورأى ابنه البار يبدد أمواله - التى جمعها بعرق الجبين - على موائد القمار .

ورأى ابنته العذراء تدلف ليلا إلى غرفة سائق سيارته ورأى .. ورأى ..
ورأى ..

وقرر الميت الحى أن يعود إلى قبره ..
ورب موت خير من حياة !! ..

وفى مسرحية أخرى كان الطبيب المشهور يقضى ليلة ليلاء يبكى ويتعجب
ويشج ويكاد يفقد عقله لأن وحيدته سيلقى حتفه إعداما عند مطلع الفجر ،
وذلك بعد أن صدر حكم القضاء بإدانته فى وقعة قتل خطأ لصاحب له كان يريه
كيف يعمل مسدسه الجديد .

وعند منتصف الليل طرق بابه طارق مُلِحٌ ، فتحامل الطبيب على نفسه
المهارة واستطاع بصعوبة أن يصل إلى الباب ويفتحه ، فإذا الطارق رجل
ضحخم الحجة كثر الشارب ولكن بادی قلق واضطراب ، وقد جاء يستغيث
بالطبيب لكى ينقذ زوجته من ولادة متعسرة لم تقو عليها «الدباية» وطال بين
الرجلين نقاش وكل لا يلتمس لصاحبه عذرا .. وبعد إلحاح ورجاء
واستعطاف تغلبت مهنة الطبيب فأخذ حقيبتة وخرج مع الرجل فى جنح الليل
ليؤدى واجبه الإنسانى ..

وقد حدثت المعجزة ونجت الأم وجاء الطفل إلى الحياة سليما معافى ،
وانطلق الأب يقفز فرحا ويحمل طفله سعيدا .. ثم سأل الطبيب عن الساعة ..
وأسرع فى الخروج لأن لديه موعدا هاما .. إذ أنه بعد نصف ساعة سوف ينفذ
حكم الإعدام فى شاب قتل صاحبه ..

هذا الرجل هو : عشاوى.. الذى سيلف جبل المشنقة حول عنق الشاب

ابن الطيب : الذى أنقذ حياة زوجته .. وجاء له بابنه الوليد سلماً !

وصاح الطيب :

سبحانك ربى .. أجدى له بابنه إلى الحياة .. ويحىء هو لابنى

بالموت !! ..

* * *

مسك الختام

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكراها
فالذكر للإنسان عمر ثان
شوقي

ما أطيبك حيا
ما أطيبك ميتا

عندما مرض محمد - صلوات الله عليه - مرض الموت كان الهدوء يشيع على محيائه الطاهر ، والصفاء يشمله رغم أن الألم العظيم كان قد حلّ به وأضناه ، وأرهقه وأرهق من حوله من أهل وصحب ، وقد خاف المسلمون أن يرتد الخلق عن دين الله إذا حمّ القضاء في صاحب الرسالة وحامل الأمانة .

وكان الله سبحانه وتعالى قد كشف لنبية الحجاب وأعلمه بالموت الذى هو ملاقيه وأن الموت نهاية كل حيّ ولو كان رسول الله وخاتم أنبيائه :

(إنك ميت وإنه ميتون)

« ٣٠ ك الزمر ٣٩ »

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون)

« ٣٤ ك الأنبياء »

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم).

« ١٤٤ م آل عمران ٣ »

ولقد كشف الموت عن سمة جليلة من سمات محمد - صلى الله عليه وسلم - فكان قدوة في مماته مثلما كان قدوة في حياته .

والموت يكشف معدن الإنسان ويبرز مدى إيمانه وصلاحه وانصياعه لحكمة الخالق الأعظم ..

وما النبأ العظيم إلا التقاء جلال الموت بجلال الميت .. ولكن الموت لا ينبغي أن يخيف عباد الله المتقين ..

عندما اشتدت الحمى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر حجة الوداع كان فكره مشغولا بتوطيد أمن المسلمين على حدود الشام خشية عدوان الروم . ولذلك كان قد أمر بتجهيز جيش عظيم عقد إمارته لقائد شاب هو أسامة بن زيد بن حارثة وهو في العشرين من سنه حياته ، وجعل أبا بكر وعمر بن الخطاب في جيش أسامة ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حومة مرضه يذكر بعث أسامة ، ويتحامل على نفسه ، ويتغلب على أوجاعه ، ويذهب إلى المسجد ليصلي بالناس ويخطب فيهم :

« أيها الناس .. انفذوا بعث أسامة .. فلعمري إذا قلت في إمارته فقد قلت في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة ، وقد كان أبوه خليقا بها وإنهما لمن أحب الناس إلى الله ورسوله فاستوصوا بأسامة خيرا » .

لقد أدرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قد اقترب أجله منذ حجة الوداع حين نزلت الآية الكريمة :

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون .. اليوم

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً
« ٣ م المائة ٥ »

وأدرك أبو بكر ما تحمله تلك الآية الكريمة من نبأ عظيم فبكى تأثراً
وارتباعاً فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - :

ما يبكيك يا أبا بكر؟

قال الصديق : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل
شئ إلا نقص .

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : صدقت .

وكانت الآية الكريمة إباننا بوفاة الرسول الكريم ، وقد خطب - صلوات
الله عليه - فأفصح وأوضح :

« أيها الناس اسمعوا مني لأبين لكم فأني لا أدري لعلى لألقاكم
بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس .. إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا
ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .

ألا هل بلغت؟ »

قال الناس : نشهد أنك بلغت وأدبت ونصحت .

قال - صلى الله عليه وسلم - : اللهم فاشهد

وتلا قوله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام
دينا) .

« ٣ م المائة ٥ »

وفي موضع آخر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

أيها الناس .. بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبي قبلي ممن بعث
الله فأخلد فيكم ؟

ألا إني لاحق برئي وأنتم لاحقون به .. فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصي
المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول :

(والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا
بالحق وتواصوا بالصبر)

« ١ - ٣ ك العصر ١٠٣ »

ثم أفصح الرسول عن اقتراب أجله واختيار خليفته قال :

« إن عبدا من عباد الله خيرّه الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده وما عند الله
فاختار ما عند الله » .

وهنا فطن أبو بكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد بذلك القول
نفسه وأنه اختار جوار الله .

وأمر النبي أن تقفل الأبواب المؤدية إلى المسجد ماعدا باب أبي بكر .. وفهم
الناس من تلك الإشارة أنه اختار أبا بكر خليفة له .

وقال - عليه الصلاة والسلام - :

« إني لأعلم أحدا كان أفضل في الصحبة منه ، وإني لو كنت متخذًا خليلا

لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة الإيمان والإخاء حتى يجمع الله بيننا عنده .

وكان بحوزة النبي - صلى الله عليه وسلم - سبعة دنانير ، فلما شعر بدنو أجله أمر بإنفاقها صدقة ، وقال في ذلك :

« ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه الدنانير » .

« نحن الأنبياء لا نورث » .

واشتد الألم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم وفاته ، فكانت ابنته فاطمة تبكي وهو يهدئ من روعها ويهمس لها :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

وقال لزوجته « عائشة » يخفف كربها ويسرى عن نفسها ما تعانیه من حزن وأسى : إنه سيقبض وأنها أول أهله يلحقه .. فجعلها تضحك .

وفي ساعاته الأخيرة تحامل على نفسه وقوى على ضعفه وخرج إلى المسجد عاصبا رأسه ومستندا على ذراعي علي بن أبي طالب والفضل بن العباس ، وصلّى قاعدا ، ثم استدار إلى الناس وقال :

« أيها الناس ..

من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليقتص مني ، ومن كان له عندي درهم فهذا مالي فليأخذ حقه .

أيها الناس .

سمرت الناس وأقبلت الفتنة كقطع الليل المظلم » .

وقد أمضى - صلى الله عليه وسلم - ساعاته الأخيرة في بيته ورأسه في حجر عائشة وكان يغمغم :

«اللهم أعنى على سكرات الموت
لا إله إلا الله . إن للموت سكرات» .

ثم شخص بصره وتمم :
«بل الرفيق الأعلى من الجنة»
وأسلم الروح العظيم

* * *

ودخل أبو بكر فكشف عن وجهه الكريم ، وقبله ، وقال :
ما أطيبك حيًا وما أطيبك ميتًا ..

وخرج أبو بكر إلى الناس الذين كانوا قد تجمعوا وظلوا طويلا بين الأمل والرجاء والخوف والإشفاق ، فقال :

«يا أيها الناس
من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات
ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»
ثم تلا قوله تعالى :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)

« ١٤٤ م آل عمران ٣ »

.. وهكذا كانت نهاية أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وفيها يتجلى الإيمان بالله ، والرضا بحكمه ، والحفاظ على دينه ، والصبر عند الشدة ، والبر بالفقراء ، والإصرار على العمل الصالح ، والكلمة الطيبة ، والدعابة اللطيفة ، كان وهو يغادر الدنيا يودعها بابتسامة الرضا ، وكلمات التقوى ، وحمد الله على ما أعطى وما أخذ ..

وما كانت أعظم كلمات أبي بكر في وداع محمد - صلى الله عليه وسلم - :

طبت حيا وطبت ميتا

* * *

ومن هذه السدة العليا لمشهد نبي الإسلام - صلوات الله عليه - حين حضرته الوفاة - خاتمة طيبة ونهاية مرضية - نقلت صفحات الزمن لتتعرف إلى عظماء الرجال كيف انتهت حياتهم ، وما كانوا عليه في ساعاتهم الأخيرة ، حتى نستلهم العبرة ، ونستكمل المسيرة .

عندما لاح شبح الموت للإمام القدوة والمصلح العظيم الشيخ محمد عبده فقد استقبل نهايته برضاء العارف وصبر المؤمن ، وكان ملاذه اسم الجلالة كلما وخزه الألم رده بقوله : الله أكبر ..

كان يقوها بصوت عال ، فلما فقد القدرة على النطق كان يحرك شفثيه :

الله .. الله ..

لقد أدرك الإمام الرشيد اقتراب منيته ، وصارحه بذلك أحباؤه ، إذ تسلسل المرض الحبيث إلى أحشائه ، وكان بعض صحبه يجامله ويتلطف به

فيقول إنه مرض الجهاد العنيف والكفاح المتواصل في سبيل الله والوطن ، فكان الإمام يقول « بل هو مرض الكائدين ودسّ الجهلاء الحاسدين .. قد يعثر الأسد بالشظية فتدمى قدمه وتثير ألمه وتخلّف عنده من العلل ما يبدد أثره .. بعد زوال الألم » .

وإذا كان المرض قد تسرب داخل جسد المريض الجليل ، فإنه لم ينل من نفسه الكبيرة ، ولم تستطع الأوجاع الشديدة أن تتغلب على صفاء نفسه ، كما لم يتمكن الألم من هزكيانه ، ولم تشغله في أيامه الأخيرة شواغل خاصة وإنما كان معنيا بشئون الأزهر ، وصلاح أمور المسلمين ، وكان لا يفتأ يقدم النصحية لزواره .

حدث أن أحد صحبه خاطبه كأنما يطمئنه ويطيب خاطره :

« لقد أعطيت نفسا أبية وعزيمة قوية ، وما عهدنا فيك ضعفا »

فقال الإمام :

« دعني من نفسي فما أبالي بها ، ومن عزيّتي فما كنت مرتخصا لها ، وما أنا بآسف على الحياة .. » .

ثم أخذ يردد شعرا من نظمه :

ولست أبالي أن يقال محمد أبلّ أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دينٌ أردتُ صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العهائم

وعندما أشار عليه الأطباء بالراحة التامة ونصحوه « بتغيير الهواء » والسفر إلى أوروبا ، قال مداعبا جلساءه :

« إنهم ينصحون بالسفر إلى أوروبا .. »

عجبا !! ألم يكن خيرا لى أن أسافر إلى الريف لأشتغل مع
الفلاحين ..

مثلا كان الخديوى يقول لى متندرا !

وفى تاريخ الإمام محمد عبده سطور من أخريات أيامه تقول :

طابت الإقامة لمفتى البلاد ، وزعيم الإصلاح الدينى والاجتماعى بهذه
المدينة - الإسكندرية - وانتعش الأمل بشفاؤه ، وابتهج الناس بتحس
صحته ، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين أرجائها من أنباء سارة ، وابتهلت إلى
الله أن يتم لإمامها أحسن العافية .. لكن هذا الأمل الذى انتعش فى بسمة
الأيام ، وهذا الابتهاج الذى بدأ فى ساعات معدودات ، وهذا التفاؤل الذى
لمع فى النفوس . لم يلبث ذلك كله طويلا .. فقد تبدد فى يوم كدر وهو
الخامس من يوليو ١٩٠٥ حين انتشر نأ الخطر على صحته ، وكان المشرفون
على تربيضه يحيطون به ، وقد اطمأنوا إلى أنه يقضى الليل منذ عدة أيام فى
راحة وسلام ، ولكنه فى تلك الليلة استيقظ متعبا متوجعا فأسرعوا إليه فوجدوه
حائرا يتلوى يمينا وشمالا من شدة الألم ، واستمر فى هذا الحال يعانى من الداء
العضال ويكافح الأوصاب الجسام ، وكان يستعين عليها بذكر الله ..

كان منذ ابتداء مرضه يردد متواصلا : الله أكبر.

الله أكبر .. كانت سلوته ، ومفتاح صبره ، ولبسم ألمه ..

الله أكبر .. كانت عماد عزيمته وشجاعته وبصيرته .. كانت

سلوته فى يقظته ومنامه ، لم ينفك عن ترديدها ، ولم يبرح

يعيدها كلما برح به الداء واشتد عليه البلاء ..

وفى صبيحة الحادى عشر من شهر يوليو ١٩٠٥ دخلت عليه السيدة قرينته

فوجدته ساكنا هادئا فنادته ففتح عينيه قليل ثم أغمضها ، وأخذ يحرك شفتيه
بالتكبير ، وأخذت السيدة الفاضلة تدعوه وهو يبتسم لها ويستمر في تحريك
شفتيه : الله . الله ..

كان اسم الله هو كل ما في خاطره حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات
حتى يستوفى جزاءه من نعيم الجنات :

* * *

أما الزعيم الوطني الشاب : مصطفى كامل باشا ، فقد قضى ضحوة
العمر ، وكان صحبه ومريده يشفقون عليه إذ كانت صحته واهية ، وبنيته
أضعف من أن تتحمل مشاق وتبعات مسئولياته العظمى وجهاده المضني ،
وهو يسعى إلى تحرير أمته من ربة الاستعمار ونير الاحتلال .

كتب مصطفى كامل لأحد أصدقائه رسالة حزينة تكشف عن اشتداد
مرضه ، وشعوره باقتراب منيته :

«إنني كنت في مرض شديد يثست معه من حياتي ، وهو مسبب
من كثرة المتاعب التي صادفتها في هذا العام ، والتي أوئل أن
تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص . ولا أوئل لي في
شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها . ورجوع السيادة
لأبنائها المخلصين .. » .

وفي رسالة أخرى تتضح قوة روحه ويتبدى ضعف
صحته :

«إن العمل قد أضنانى إلى حد أشعر معه بشدة الحاجة إلى ترك الوسط الذى أعيش فيه ، وكأن الطبيعة خالفت سنتها إذ جعلت روحى أكبر من قوة جسمى .. تماثلا مع القول المشهور :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
كان الذى يشغل الزعيم القوى الروح ، الضعيف البنية ، هو : مصر ..
وكان لايفتأ ينشد فى يقظته وإغماءاته نداءه الحبيب :

بلادى .. بلادى

وفى كتاب «الساعات الأخيرة» لمؤلفه المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى تسجيل دقيق لما دار فى أخريات أيام الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل :
لما عاد مصطفى كامل إلى مصر فى أوروبا سنة ١٩٠٧ قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والإعجاب ، ورأى هو أن يدعم حركته - قبل أن تحل منيته - بتأليف الحزب الوطنى ، وفى أول اجتماع له مع أصدقائه ومعارفه للبحث فى تأليف الحزب شعر بالتعب ، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه ..

قال لهم :

يخيّل إلى أننى عما قريب سوف أفارقكم ..

قال أحدهم :

إلى أين .. إنك أجهدت نفسك ، وسموت فوق الطاقة فى جهادك ،
وأنهكت جسمك فى السفر فى سبيل مصر مرارا .. فاسترح فى بلدك .

قال مصطفى كامل :

سوف يستريح جسمى الراحة الكبرى .. وكنت أود لو استراحت روحى
قبل الفراق « يقصد نجاح مسعى الاستقلال » .

قال صاحبه :

ماذا تقصد يا باشا

قال مصطفى كامل :

أقصد أنى لن أعيش طويلا ، وسأموت قريبا .. فلا تضيعوا الوقت
اسرعوا بالعمل .

قال صاحبه :

سلمت يا مصطفى .. لا تتشاءم ..

قال :

ليس تشاؤما ولا وهما .. أنى أشعر من أعماق بنفسى بقرب نهايتى .. وهنا
فظن لإخوانه إلى ما يعانیه ، وحل بهم الأسى والكدر فسكتت ألسنتهم ،
ونطقت وجوههم بما تولاهم من هم وذهول .

والنفت مصطفى كامل إلى شقيقه على فهمى كامل ، وقال :

تشجع يا على .. وإذا متّ فليحمل اللواء هذا الرجل .. وأشار إلى
خليفته : محمد فريد .

وكانت آخر خطبة ألقاها مصطفى كامل يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ فى مسرح
زيرنيا بالإسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر ، وقد استمر فى إلقاء خطابه
أربع ساعات تكرر خلالها حديثه عن الموت وقد جاء فيها :

« إن مصر بالغة آمالها ومحقة بإرادتها وهمتها كل مطالبها ..

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم ، في ماضى الأيام وحاضرها . إن أعلى مطلب نرمى إليه هو مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات توقفنا في طريقنا ولا الشنائم تؤثر فينا ولا الخيانات ترزعجنا .. ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية . نعم .. لو تحفظنا الموت من هذه الدار واحدا واحدا لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا :

كونوا أشد حظا منا

وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بحقوق الوطن والحرية والاستقلال .. « .

وهكذا كان كلام زعيم وطنى شجاع يدرك تماما أنه أصبح فى قبضة الموت دون أن يشغله موته بقدر ما تشغله حياة أمته . وكان نداؤه يدوى فى شتى أنحاء البلاد :

بلادى . . بلادى	لك حبيبى وفؤادى
لك حياتى ووجودى	لك ديمى ونفسى
لك عقلى ولسانى	لك لبيبى وجناتى

أنت أنت الحياة

ولا حياة إلا بك يا مصر

وفى إبان مرضه زاره صاحب العرش ، فإذا مصطفي كامل يوصى

الخدوي عباس حلمي الثاني .. يوصيه بالبلد خيرا :

«لى رجاء يا أفندينا
وأنا أشعر الآن بقرب الأجل
أن تعطف على الحزب الوطنى .. إنه أمل مصر..»

وعندما حضرته الوفاة التفت إلى صديقه أمير الشعراء أحمد شوقي بك .
وهمس إليه بنبرة خفيفة مرحة :

سوف ترثني يا شوقي .. أليس كذلك ؟

فأجابته دموع شوقي ، التي نظمها فيما بعد في مرثيته الرائعة :

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مآتم والداني
دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان
ولقد نظرتك والردى بك محقق والداء ملء معالم الأجنان
ورأيت كيف يموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
.. وقد ختمها بقوله :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبرّ على حطامك حاني
أقسمت أنك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان

* * *

إن الرجال العظماء يستقبلون الموت بإدراك سليم لحكمة الله واستسلام مريح
رضاء بقضائه .

وإذا انتقل الرجل العظيم إلى جوار ربه ، فإن ذكره تبقى حية في نفوس أهله وعارفى فضله وبنى وطنه ..

يذوى الجسد وتبقى الروح ، يغيب الإنسان ويبقى الاسم والفضل .
يمضى الزعيم ويستمر العلم يتلقاه قائد بعد قائد وجيل بعد جيل ..

في السفر الرائع الذى دمج قلم الكاتب العظيم الراحل عباد محمود العقاد «سعد زغلول .. سيرة وتحية» صفحات باهرة وجميلة عن الساعات الأخيرة في حياة زعيم مصر الخالد ، تحمل لمحات من سمات الإنسان الكبير وخصائص الزعيم العظيم :

«الوفاة ..

كان فصل الانتقال من الشتاء إلى الربيع متعبا لسعد ، فلزم الراحة نحو ثلاثة أسابيع من شهر إبريل سنة ١٩٢٧ ونصح له الأطباء بتبديل الهواء فى الصعيد ، فأضى فى النيل ثلاثة أيام عاد بعدها إلى القاهرة ليستأنف عمله فى «بيت الأمة» وفى مجلس النواب ، وكان يجاهد نفسه ليثابر على حضور الجلسات ..

وازداد شعوره بجهد العمل يوما بعد يوم قبيل انتهاء الدورة البرلمانية ، فكان يحضر حيناً ويغيب حيناً ويعانى مشقة بالغة فى متابعة الأعمال البرلمانية وغير البرلمانية ، وكثير منها يجرى وراء ستار ، وهو الذى يجهد ولا ينشط إلى الخوض فى دخائله وحواليه .

وقبل اليوم الأخير للدورة البرلمانية استجم فى المنزل ليستطيع أن يشهد الجلسة الأخيرة ويلقى فيها كلمة الختام التى تعودها منه

النواب ، غير أنه لم يقو على التحضير كدأبه في المناسبات الرسمية ،
واجترأ بكلمة قال في مطلعها :

« حاولت عند اقتراب انتهاء هذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت في الدور
السابق ولكنى لم أتمكن من ذلك لضعف في صحتى » .

ثم قال :

« لقد كنت أود أن أتحدث إليكم كثيراً ولكنى أشعر أننى تعبت
وأتعبتكم ولا أريد أن أجعل أحداً يملّ منى . ولكنى قبل أن أختم كلامى
أرجو منكم جميعاً حين تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم .. لا تنسوا
أنكم نواب دائماً ليحدوكم هذا العلم إلى البحث عن آمال مواطنيكم
واحتياجاتهم ورغباتهم لكي تبدوها للحكومة مباشرة أو بطريق هذا المجلس في
الدورة القادمة إن شاء الله » .

هكذا كان حديث الرئيس الجليل ، يوصى الرجال ويقدم النصيح ويهتم
بالمصلحة العليا للبلاد ، وبمطالب المواطنين .. وتلك هى المهام الرئيسية لنواب
الشعب .

وفى ساعاته الأخيرة استيقظ سعد بعد منتصف الليل على آلام شديدة فى
المعدة ثم زرعه القيء واشتد به التعب ، وارتفعت حرارته حتى بلغت فى
الصباح أربعين درجة وخطين .

وجاء الأطباء فأوجسوا أن يكون ذلك علامة على سريان الجراثيم وسرعة
فعلها فى البنية ، وداخلهم الرجاء أن يكون ذلك طارئاً عارضاً فى الأمعاء
فعالجوه علاجاً يقاوم السموم ويخفف هذا الطارئ المفروض .. والحرارة لم

تهبط عن الحادية والأربعين ، وارتفعت في الصباح ثلاث خطوط .

وسألته السيدة صفية - أم المصريين - كيف أنت يا سعد ؟

فنظر من حوله في هدوء واستسلام .. وكان آخر ما فاه به سعد :

« أنا انتهيت »

* * *

.. والرؤساء المشاهير أيضا .

كان موت الرئيس جمال عبدالناصر مفاجأة للشعب المصرى ، وربما لشعوب العالم ، إذ كان مرضه محجوبا عن الجميع ولم يعلم المصريون أن رئيسهم مصاب بمرض السكر منذ سنة ١٩٥٨ وهو فى الأربعين من سنوات عمره وفى الرابعة من سنوات حكمه .. كما أنه كان يعانى حالة موجعة من تقلص شرايين ساقيه .. ولما كان يدخن بشراهة فقد أجمع الأطباء الذى يعالجه على ضرورة إقلاعه عن التدخين فاستجاب على الفور واطفاً آخر سجاثره قبل وفاته بنحو عشر سنوات ، وكان يقول : إن السيجارة هى الترف الوحيد الذى كنت أستمتع به !

ورأى عبدالناصر أن يجرب علاج الأطباء السوفيت ، وقد أشاروا بعلاجه بالمياه المعدنية الساخنة فى مصحة سخالطبو بالاتحاد السوفيتى ، ثم نصحوه بالإخلاء للراحة التامة فلم يتصح .. وكان قد أصيب بأول نوبة قلبية فى شهر سبتمبر ١٩٦٩ أى قبل وفاته بسنة واحدة ، وتكتم المحيطون به خبر إصابته وأشاعوا أنه « يعانى حالة انفلونزا وستيغيب عن مكتبه لمدة ستة أسابيع » ! وأقاموا مصعدا كهربائيا فى بيته حتى لا يصعد على رجليه دوراً واحداً .

وقد كتب الأستاذ محمد حسين هيكل - مستشاره الصحفي ووزير إعلامه في سنته الأخيرة وأقرب المحيطين به والعارفين بحالته - إنه «على أثر هزيمة ١٩٦٧ حلت المذلة برأسه وظل يشعر بألم الهزيمة وبمسئوليته وبعيئه المستمر ، وأصبح مغلولاً وجرحاً بجراح لا تبرا ، وبقي وحيدا كل الوحدة حتى انتقل إلى رحاب الله» .

وكان عبد الناصر قد أصيب بنوبة قلبية ثانية على أثر عقد مؤتمر القمة العربية في القاهرة - ٢٢ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ - وكان آخر عمل قام به هو توديعه لأمير الكويت في مطار القاهرة يوم ٢٨ سبتمبر ، فلما عاد إلى بيته كان ذابلاً هالكا فلزم فراشه بلا حراك والأطباء حوله يبذلون أقصى ما لديهم من محاولات بالصدمات الكهربائية وغيرها . ويقال إنه في الساعة الخامسة بعد الظهر مد يده وأدار الراديو فلم يستمع إلى الخبر الذي كان قد أمر بإذاعته في نشرة أخبار الخامسة .. فلم يدع ، وبعد ذلك أسلم الروح !

لقد عاش جمال عبد الناصر اثنين وخمسين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما بين مولده يوم ١٥ يناير ١٩١٨ ووفاته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

ويروى أن رئيس وزراء الصين شوين لاي قال لوفد من المصريين كانوا في زيارته :

«لقد مات عبد الناصر من الحزن والقهر . مات كسير القلب .. أما الذنب في ذلك فهو الاتحاد السوفيتي .. لقد خدعه السوفييت ودفعوه إلى مأزق ثم تخلوا عنه وتركوا قلبه ينكسر ويتحطم» ! ؟

.. ولكننا نقول : أستغفر الله . لكل أجل كتاب .

أما أنور السادات فقد كانت مفاجأة موته أكبر .

لقد اغتيل في لحظة غير متوقعة ، وفي مناسبة غير مناسبة !

كان بين «أولاده» كما كان يقول عن ضباط وجنود القوات المسلحة ..
وفي احتفالات الذكرى الثامنة لـ «نصر أكتوبر» الذي كان يتبه به .. وقد
اتخذ مكانه يحيط به ألف مدعو من رجال الحكم والدبلوماسيين وقادة القوات
المسلحة والشرطة ..

كانت وحدات الجيش تمر أمامه وتؤدي التحية ، وحدة بعد أخرى .
والطائرات تشق عنان السماء ثم تنحني حتى تقترب من منصبه فيضع
المشاهدون أصابعهم في آذانهم ويتضحكون .. وآلاف البالونات تصعد في
الفضاء حاملة صورته بزى القائد الأعلى وأوسمته ووشاحاته كقائد عام للقوات
المسلحة وللمجلس الأعلى للشرطة والمجلس الأعلى للقضاء .. وفجأة : وقفت
أمام المنصة عربية عسكرية وهبط منها الملازم أول خالد الاسلامبولي ورفاقه
الثلاثة المتآمرين معه فأفرغوا رشاشاتهم في أنور السادات وأردوه قتيلا .

وقد اقتصر تشييع جنازة السادات على رجال الدولة الرسميين وشارك فيها
ثلاثة من رؤساء أمريكا السابقين : نيكسون وفورد وكارتر ، وأيضا مناحم
بيجن رئيس وزراء إسرائيل .

ونعاه رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان بقوله :

«إن أنور السادات كان موضع إعجاب وحب الشعب الأمريكي وأنا
لموته لحزونون» .

ونشرت مجلة نيوزويك الأمريكية خبر مقتل السادات على غلافها وفي

خمس وعشرين صفحة محلاة بالصور والرسم . وقد جاء في بيانها :
« قبل إحدى عشرة سنة - غداة موت عبد الناصر - كان ملايين المصريين
يملاؤن الشوارع وراء جثمانه .. أما يوم تشييع جنازة السادات فقد كانت
شوارع القاهرة خالية تماماً !

وقد دفن عبد الناصر في المسجد الذي كان معنيا بإنشائه في «كوبرى
القبة» ، في ذات الموقع الذي كان يرقب منه حركة الجيش ليلة ثورة
٢٣ يوليو ، أما السادات فقد دفن أمام المنصة التي قضى فيها نجه .. وعلى بعد
خطوات من نصب الجندي المجهول .

وصدق الشاعر العربي القديم القائل :

مشيناها خطأ كتبت علينا ومن كتبت عليه خطأ مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

* * *

عش راضيا تمت مستريحا

إذا كنت مؤمنا بالله ومؤديا ما فرضه الله
وإذا أخلصت لوطنك وعملك وشركائك
وإذا حافظت على زوجك وأولادك وزودتهم خيرا وصلاحا
وإذا سددت ما عليك من دين وأديت الأمانت لأهلها
وإذا خلصت قلبك من الحقد والحسد والأناية
وإذا عفوت عن خصومك وسأحت أصدقاءك
وإذا كنت عارفا بأن الموت حق وأنه نهاية كل حي
وإذا جاءك الموت فلم تفرع وإنما تقبلته راضيا
وقلت الحمد لله .. اللهم خفف عني وتقبلني
إذن .. فقد طبت حيا وميتا
وانتقلت إلى جوار ربك راضيا مرضيا

« وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لها خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين .. وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

صدق الله العظيم

(٧٣ - ٧٥ م الزمر ٣٩)

(تم بعون الله)

الفهرس

٧	تقديم.....
١٣	ليس هذا الكتاب متشائماً.....
٢٥	إنك ميت وإنهم ميتون.....
٥١	تعددت الأسباب والموت واحد.....
٦٣	الموت بالجملة.....
٨٥	هؤلاء ماتوا بأيديهم.....
٩٩	رب موت أشرف من حياة.....
١٢١	للموت دعايات وطرائف.....
١٣١	مسك الختام.....

الكتاب .. والمؤلف

* هذا الكتاب هو رقم ٦١ من مؤلفات السيد فرج وكان أولها كتاب «الرياضة في بلادنا» الذي أصدرته «دار المعارف» في أول يناير سنة ١٩٤٠ .
* وقد شغل السيد فرج عدة مناصب ثقافية وإعلامية بارزة خلال الثلاثين سنة الماضية .

* في سنة ١٩٥٦ عين وكيلا ومديرا بالنيابة لدار الكتب .

* في سنة ١٩٦٠ عين مديرا عام لجامعة الثقافة

* في سنة ١٩٦٥ عين وكيلا لوزارة الإعلام .

* في سنة ١٩٧٦ انتخب سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى للثقافة والإعلام .

* في سنة ١٩٧٧ عين مستشارا لوزير الثقافة وأميننا عاما للمؤتمر العام

للثقافة والإعلام .

* وقد عين عضوا في المجلس الأعلى لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس

الأعلى لرعاية الشباب وعضوا في مجلس إدارة المؤسسة الثقافية العمالية ومجلس

إدارة المؤسسة الاجتماعية العمالية ورئيسا لمجلس إدارة مسرح العمال ومديرا

لتحرير مجلة الثقافة العمالية ، وعضوا في اتحاد الكتاب ، كما انتخب سكرتيرا

عاما لجمعية الصداقة المصرية الأمريكية ثم رئيسا لها (١٩٨٢ - ١٩٨٤) .

* وقد زار السيد فرج منشآت ومراكز الثقافة والإعلام في عدة دول

أوربية وأفريقية وأسيوية ، كما أسهم في تنمية ودعم العلاقات الثقافية والإعلامية العربية .

« وللمؤلف صلة قديمة ومستمرة بدوائر الرياضة البدنية والصحافة ، وكان لقلمه مكان مرموق على صفحات الأهرام والمصرى ومجلة الهلال ومجلة المشاة ومجلة رابطة العالم الإسلامي ، وكان يوقع كثيرا من مقالاته بإمضاء « سيف » .

« وللسيد فرج ٦١ كتابا في موضوعات حرية وثقافية وإعلامية من أشهرها « جيشنا في فلسطين » و« القيادة والقادة العظام » و« عبور القناة » و« طرائف عربية وعالمية » و« أمراء الشعراء » ومسرحية « ساعة اخلاص » .

* * *

رقم الاینداع ۸۷/۴۰۵۲
ترقیم دولی : ۶ - ۰۹۳ - ۱۴۸ - ۹۷۷

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

تدريش هندية
١٩٧٥

هَذَا الْكِتَابُ

« .. ولقد وجلت نفسى مشوقا إلى تلبية الدعوة
الكريمة لوضع تقديم لهذا الكتاب الشيق ، فى
هذا الغرض الطريف الذى لم يسبق أن انجبه إليه
كاتب ، ولما وقفت عليه من صور صادقة
وبراهين ناطقة على سداد ما خط قلمه وأفضى به
علمه .. »

الهدى